

رواية

فعل ماضي

مي عبد الباقي

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع



رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادي

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الثانية

الكتاب : فعل ماضي

المؤلف : مى عبد الباقي على

تصنيف الكتاب : رواية

تصميم الغلاف : محمد عطية

إخراج عام : أحمد عبد الحليم

المقاس ٢٠ × ١٤

رقم الإبداع : ٢٥٧٧٨ / ٢٠١٧

الترقيم الدولي : 2 - 557 - 776 - 977 - 978

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى روح أبي النقية، فبرغم أنك لم تكن
حاضراً في حياتي ولكنك دائم الحضور في قلبي ووجداني.

أهديه أيضاً إلى أمي البطلة التي عانت كثيراً في هذه
الحياة وطالما ساعدتني وساندتني لأكون بأفضل صورة
ممكنة..... شكراً لك.

وبالتأكيد

إهداء إلى زوجي لوقوفه بجانبى وتشجيعه الدائم.

إهداء خاص

إهداء إلى أصدقائي الذين ساندوني كثيراً ليخرج هذا
الكتاب بأحسن صورة.

شكراً لنهلة التي ألهمتني فكرة هذا الكتاب

وإنجي التي طالما غمرتني بالإيجابية كي أكمل ما
بدأت.

شكر خاص للفنان والكاتب أحمد الدهان على مساندتي
بآرائه الفنية القيمة.

مرحة ماضي الدسوقي

«في حياة كل منا أوقات فارغة بلا طعم أو رائحة، تسرق أجزاء من روحك خلصة فلا تشعر بحجم المأساة إلا بعد فوات الأوان. تألف الوضع ولكن لا تشعر بالراحة أبداً، فتفقد الحياة حينئذ معناها.. تصبح الدنيا باهتة ضبابية وإذا حاولت النظر إليها تتألم عيناك فتفضل حالتك الفارغة عن الألم الذي شعرت به فتعود إليها طوعاً، ولكن يبقى السؤال هنا: هل نحن من نصنع هذه الحالة أم هي من تصنعنا؟»

الإعلان

«مطلوب متطوعون من الرجال فقط فوق سن الستين عاماً لتجربة مستحضرات تجميل جديدة، فمن يرغب في الاشتراك برجاء الاتصال على رقم ٠٢.....»

قرأ «ماضي» هذا الإعلان في الجريدة التي يقرأها كل صباح منذ أن توقف عن العمل. اندهش من هذا الإعلان المقتضب الذي لا يحمل أي تفاصيل، مجرد جملة قصيرة مصحوبة برقم هاتف، ثم منذ متى أصبحت مستحضرات التجميل للرجال؟!

على حد علمه فمستحضرات التجميل مقتصرة على النساء فقط، فكر في تجاهل الإعلان كلياً وقلب الصفحة، ولكنه عدل عن قراره في اللحظة الأخيرة، فمنذ أن تقاعد عن العمل وهو وحيد بائس يشعر بملل شديد، هو الذي لم يتزوج قط؛ لذلك لا يوجد لديه أولاد أو أحفاد يؤنسونه وحدته، أو على الأقل زوجة تشاركه ما تبقى له

من عمر، بعد أن رحل أغلب أهله عن عالمنا، وأخته الوحيدة هاجرت منذ زمن بعيد مع زوجها، وانقطع بينهم الاتصال منذ مدة طويلة وهو وحيد تماماً، بمعنى آخر لا يوجد لديه ما يخسره فالوقت متوفر بكثرة والملل يقتله، ويمكن أن يكسر هذا الروتين القاتل بخوضه هذه المغامرة الصغيرة، إذا جاز اعتبارها مغامرة من الأساس، ولكن في حياة مثل حياة «ماضي» أي تغيير بسيط يعتبر مغامرة كبيرة. دارت كل هذه الأفكار في رأسه حتى أمسك أخيراً بالهاتف واستقر قلبه على الاشتراك في هذه التجربة.

كان ميعاد المقابلة بعد يومين، كما قالت له سكرتيرة «الميكاب أرتيست» على حد قولها، سألته عن وظيفته فأجابها، ثم حددت له موعداً للمقابلة يوم الأربعاء، أي بعد يومين من الآن. لم يفهم في البداية ماذا تعني ب «ميكاب أرتيست» حتى فهم ما تقصده من سياق الكلام، ثم منذ متى أصبح لدى هذا «الميكاب أرتيست» سكرتيرة!!!

على حد علمه «الحلاق» كان يقوم بحلقه شعر السيدات والرجال ووضع المكياج وتزيينهم جميعاً؛ لذلك كان يطلق عليه «المزين» ولم يتوقف دوره - المزين ليس ماضي - عند هذا الحد، بل إنه أيضاً كان يعالج أطفالهم كلما طلبوا منه

ذلك دون تردد أو تقاعس أو تخاذل من جانبه، وكل هذا المجهود يقدر بقرش صاغ واحد فقط لا غير.

في اليوم التالي كان الحماس يغلبه والأفكار تتدفق في رأسه بلا توقف، فبالرغم من أنه لا يعلم ما كنه هذه التجربة بالضبط، أو ما هو المطلوب منه ولكنه متحمس لها بشدة، مثل الطفل الصغير الذي يسرق الحلوى دون علم والدته ويلتهمها في نهم، فهو يستمتع بطعم الحلوى ويستمتع بطعم المغامرة كذلك، «ماضي» يشعر أنه سرق هذه اللحظة من الحياة دون علم منها بعد أن خبأت منه كل الحلوى والمثلذات منذ زمن بعيد وتركته في إهمال وحيدا، ولكنه رغماً عنها وجد قطعة صغيرة من الحلوى، و ينتظر يوم الأربعاء بفارغ الصبر كي يلتهمها بنهم، حاول يومها أن يقضى يومه الممل كالعادة، فهو يسكن في منزل فسيح، (فيلا) كبيرة بإحدى المناطق الراقية، ولكن حجم هذا المنزل الكبير كان نقمة ليس نعمة بالنسبة له، فكلما نظر حوله يجد الفراغ والسكون يسكن كل جزء من أجزاء المنزل، ويشعره بالبرد القارس حتى في أيام الصيف؛ فالبرودة تأتي من روحه ليس من الهواء في الخارج،

يشعر أنه منزل أشباح، حتى خادمه العجوز «محمود» هادئ جداً لا تكاد تشعر بوجوده، هو الوحيد الذي يؤنس وحدته. حتى بعد أن استغنى عن جميع مساعديه، لم يستطع الاستغناء عن «محمود»، ليس فقط لأنه يخدمه ويساعده؛ ولكنه يحب طبيته وروحه النقية و«محمود» أيضاً يحب «ماضي» ويكن له كل الاحترام والتقدير، ودائماً ما يتحدث عنه بكل خير. طلب «ماضي» من «محمود» أن يحضر لهما الإفطار مثل كل يوم، فدائماً ما يشاركه «محمود» الإفطار على المائدة نفسها. كان «محمود» يستحي في البداية من الجلوس مع سيده على الطاولة نفسها، ولكن مع إصرار «ماضي» المستمر وافق «محمود» على طلبه أخيراً. في البداية كانوا يتشاركون الحديث في مواضيع مختلفة لكن مع حياتهم المملة التي لا تحمل أي جديد قلّ الحديث حتى أصبح معدوماً..

يجلسان كل يوم لتناول الإفطار أو الغداء في صمت تام. ينهمك «محمود» في الأكل ويقرأ «ماضي» الجرائد من باب العادة لا أكثر، فالأخبار أصبحت غاية في الغرابة على كل حال. بعد الانتهاء من الإفطار لم يجد «ماضي» شيئاً يفعله، ظل ينظر لحوائط المنزل في أسى، فهي تشعره بالاختناق

كلما رآها حوله. بالرغم من أن منزله أنيق وأرضيته رخامية فخمة حتى الأثاث الكلاسيكي المرصوص بعناية بالغة بألوانه البنية المريحة للعين، والحوائط زاهية الألوان تتناسق مع ألوان الأثاث في نعومة وانسيابية، والنافورة العملاقة في بهو المنزل تبعث الراحة النفسية مع صوت هدير مائها العذب.. لو دخلت منزله لأصابتك الدهشة من فرط جماله وإتقان تصميمه، لقد استعان «ماضي» بأكفأ المصممين في شركته كي يصمموا له هذا المنزل، ولكن بالرغم من هذا الجمال الخلاب لم يعره «ماضي» اهتماماً لقد اعتادته عيناه مع الوقت، وأصبح يكره صعود السلم كي يصل إلى غرفة نومه، فالسلم يؤلم مفاصل ركبته بشدة، حتى أصبح الصعود والنزول ثقيلًا على قلبه. لم يعد «ماضي» يرى حوله سوى الحوائط الخرسانية التي تجثم على قلبه. حاول أن يفكر بطريقة إيجابية أكثر، وهوّن على نفسه بأن غداً يوم جديد وأحداث جديدة تخلخل مجرى مياه حياته الراكدة، فآثر أن ينام مبكراً حتى يأتي اليوم التالي سريعاً ويذهب إلى «الميكب أرتيست»؛ ليفهم ما يفعله هذا الرجل بالضبط، وماذا يريد منه وهذا ما حدث بالفعل.

جاء يوم الأربعاء، فاستيقظ في وقت باكر وهو يشعر بنشاط لم يعتد عليه في الآونة الأخيرة. أخيراً بعد زمن طويل لديه شئ يفعله، فهو كان في الماضي مهندساً مجتهداً غاية في النشاط مشغولاً طيلة الوقت، يعلم كل صغيرة وكبيرة تخص مهنته، دؤوباً جداً حتى تمت ترقيته في فترة قصيرة، وأصبح مديراً لقسم التصميمات في إحدى المصانع المرموقة في القاهرة الكبرى، يرجع ذلك لكفاءته وتميزه في مجاله بالرغم أن هذا نادر الحدوث في مصر - أن تحصل على امتيازات بسبب كفاءتك - ولكنه كان هو ماضي هذه الحالة نادرة الحدوث، يمكن أن نطلق عليه نابغة في مجال الهندسة الميكانيكية دون مبالغة. كان يطور من نفسه كثيراً فظلت الترقيات تتوالى، والإعارات إلى دول أجنبية وعربية تنهال عليه. سافر بلادا كثيرة لأغراض تخص العمل. نظرياً زار أغلب بلاد العالم، لكن فعلياً هو لم ير سوى قاعات المؤتمرات والمصانع التي تشابه في الكثير من البلدان، يمكن القول إنه زار هذه البلاد ولم يزرها في الوقت نفسه. أنشأ شركة صغيرة مع أحد زملائه وهو لم يكمل الأربعين بعد، ونتيجة لعلاقته الجيدة مع الكثير من العملاء تطورت الشركة مع الوقت، وأصبحت من أكبر شركات التصميم في هذا المجال وفي مجال الهندسة عامة، لم يكن لديها شهرة

عالمية أو محلية لعامة الشعب ولكن كل من يعمل في مجال الهندسة يعرف من هو المهندس «ماضي الدسوقي» ويتمنى في يوم من الأيام العمل تحت إدارته. استمر الوضع سنين طويلة على هذا المنوال، «ماضي» في قمة الانشغال بعمله ومستقبله، وكان نصب عينيه هدف واحد هو نجاح شركته وانتشار صيته والحصول على المال الوفير، فلم يكن لديه وقت حتى لدخول المرحاض كما يقولون، فهو من اجتماع إلى آخر، شكاوى الموظفين، طلبات العملاء وهكذا..

مرت السنين وقد استهلك كل طاقته فلم يعد قادراً على العطاء، فقرر بيع حصته في الشركة والتقاعد، ولكن بعد فترة من المكوث في المنزل لم يتحمل الوضع، فهو لم يعتد ذلك، وإكراماً له عمل كمستشار لدى أكبر الشركات في ذلك الوقت بدوام جزئي، وظل الوضع هكذا لفترة ليست طويلة. ولكن منذ عامين فقط شعر أنه فعلاً استنفد كل طاقته، ولم يعد يستطيع أن يعمل أكثر من ذلك، فاستسلم لفكرة التقاعد ومن يومها وهو على هذا الحال.... وحيداً. لذلك نجده اليوم سعيداً ومتحمساً، هو الذي فقد الأمل في الحياة تماماً، فهو لا يعرف ماذا يفعل غير أن يعمل، هذا

هو الشئ الوحيد الذي يجيده حقاً، فطوال هذين العامين وهو يشعر بفراغ نفسي شديد، ويعيش على أمل أن يتذكره الرحمن في أية لحظة، لكن اليوم مختلف فلديه مهمة يقوم بها ويا الله فهو يشق إلى هذه الكلمة «مهمة»..

دخل إلى دورة المياه وقرّر قراراً ثورياً لم يجسر على اتخاذه منذ فترة، ألا وهو حلاقة ذقنه الطويلة، ولكن لديه مشكلة فهو لا يتذكر مكان الأمواس، وهل لديه واحد أم لا من الأساس، يا لها من ورطة فهو لا يريد أن يتأخر على «المهمة» كما أطلق عليها، لقد سحرت هذه الكلمة وقرر استخدامها من الآن فصاعداً حتى تنتهى هذه «المهمة»، حمداً لله، وجد (موسا) جديداً ملقى في أحد الجوانب فسعد جداً بغنيمة هذه، وحاول السيطرة عليه بيده المهترزة حتى لا يجرح ذقنه، فوجهه مهم جداً اليوم كما تستدعي المهمة، انتهت من الحلاقة بمعجزة، لقد استغرق أكثر من نصف ساعة في هذه العملية المتعسرة، نظر إلى ساعة الحائط بعد أن خرج من المرحاض فوجد أن الوقت يداهمه، فالمتبقي هو ساعة ونصف، وبالكاد يكفي، سيستهلك الطريق حوالي ساعة فلم يبق له سوى نصف ساعة فقط للاستعداد،

فتح الدولاب سريعاً واختار بذلته المفضلة التي تجعله أنيقاً حتى ينال إعجاب «الميكاب أرتيست».

انتهى من الاستعداد ونظر في المرأة نظرة أخيرة ليرى النتيجة النهائية، شعر بالرضا عن نفسه وترجّل إلى الشارع وقلبه يدق مثل طفل في طريقه إلى الملاهي للمرة الأولى في حياته، وصل إلى العنوان المقصود فوجدها بناية عادية جداً في حي «مصر الجديدة» عكس ما توقع، كان يظن أنه سيجد استوديو أو محلاً أو أي شيء من هذا القبيل، ولكن في المقابل وجد هذه البناية السكنية العادية، لحسن الحظ وجد حارساً للعقار يجلس أمام الباب فسأله إذا كان «الميكاب أرتيست أحمد مكاوي» يسكن هنا، فأشار له الرجل على الدور الرابع، وقال إنه سيجد مقصده في الشقة التي تقع على الجانب الأيمن، شكر الرجل واتبع إرشاداته حتى وصل للشقة المذكورة ورن الجرس ففتحت له فتاة حسنة في منتصف العشرينيات ترتدي بذلة سوداء تحتها قميص باللون الوردي، توقع أن تكون هي من كانت تحدثه في الهاتف، نظرت له مبتسمة وطلبت منه أن يدخل فبادهها ابتسامة متوترة وأذعن لطلبها ولكن عندما دخل الشقة أصابته صدمة شديدة وخيبة أمل.

المكتب

أول ما وقعت عليه عيناه بعد أن دخل الشقة هو صف طويل من الكراسي المتراسة على جانبي الردهة الطويلة، يجلس عليها العديد من الرجال المسنين البؤساء مثله، فهو لم يتوقع أن يكون عدد المتقدمين كبيراً هكذا، غير أن السكرتيرة أكدت له أنها مقابلة شخصية، ثم منذ متى والمقابلات الشخصية تتم بهذا الشكل؟!

انتابه شعور أنه دخل عزاء وليس مقابلة شخصية لكثرة هذه الوجوه المسنة البائسة. على حد علمه فالمقابلات الشخصية تكون لكل شخص على حدة ويتم تحديد موعد منفصل لكل شخص، فهو لم ير في حياته مثل هذا الجمع الغفير من أجل مقابلة شخصية واحدة. فقام بالاستفسار من السكرتيرة عن كنه هذه المقابلة الشخصية الغريبة فأكدت له أن كل شخص سوف يدخل على حدة وأن اعتقاده بأن المقابلة جماعية غير صحيح، فهذا قليلاً

ولكن الشعور بالإحباط لم يهدأ بكلمات السكرتيرة التي قالت له أيضاً إنه سيتم اختيار شخص واحد «للمهمة» وطبعاً مع وجود هذا العدد الكبير احتمالية اختياره ضعيفة، هو الذي وضع الكثير من الآمال على هذه «المهمة» الصغيرة، يمكن أن تدوم هذه «المهمة» لبضع ساعات فقط، ولكنها أفضل من لا شئ على الإطلاق؛ ولذلك فهو لا يريد أن يخسرهما. الآن هو يفهم سبب نظرة البؤس على وجوه الآخرين، فهم مثله تماماً يضعون آمالاً كبيرة على هذه «المهمة». أخبرته السكرتيرة أن ينتظر قليلاً حتى يتم استدعائه للدخول وهو ما يفعله الآن.

بعد برهة من الزمن دخل عليهم شاب في أوائل الثلاثينات من باب أمامهم، يبدو أنه باب مكتبه، حليق الشعر والذقن، يرتدي قميصاً مقلماً باللونين الأزرق والأبيض وعليه بنطلون باللون البني الفاتح وحزام باللون البني الداكن وجذاء بنفس لون الحزام، متوسط الطول رفيع الجسد، عيناه جاحظتان قليلاً، لن تلاحظ هذا المحووظ البسيط إلا إذا دقت النظر إليه، فمه رفيع وجبهته لامعة يبدو عليه التوتر أو العجلة كأنه ترك شيئاً مهماً يفعله ويريد العودة إليه سريعاً.

قدمته السكرتيرة على أنه «أحمد مكاوي» الميكاب أرتيست المنتظر. فاندesh «ماضي» أن هذا المائل أمامه هو الميكاب أرتيست المزعم، فهيئة تدل على أنه موظف حسابات في شركة مقاولات لا أكثر، ثم منذ متى والميكاب أرتيستس يبدون هكذا؟!!

حاول «ماضي» ابتلاع دهشته وابتسم ابتسامة صفراء للميكاب أرتيست الذي نظر لهم نظرة سريعة ثم ألقى عليهم التحية، وبعدها ذهب ليتحدث للسكرتيرة بصوت غير مسموع بجانب أذنها فهزت رأسها متفهمة، فأشار لها أن كل شيء على ما يرام، ثم دخل مسرعاً مرة أخرى إلى مكتبه.

بعد وقت أقصر هذه المرة اعتذرت السكرتيرة من بعض الحاضرين وقالت لهم إن أستاذ «أحمد» لن يتمكن من مقابلتهم اليوم نظراً للعدد الكبير الموجود، فانصاعوا إلى طلبها على غير رغبتهم وذهبوا إلى حال سبيلهم. هذه المرة قامت مباشرة بعد انصراف المستبشرين بتوزيع ورقة وقلم على باقي الحضور وطلبت منهم الإجابة على الأسئلة المذكورة في الورقة وإعطائها إياها بعد الانتهاء منها مباشرة. أخذ منها الورقة بيد مرتجلة كالعادة وبدأ في قراءة الأسئلة المدونة بها.

استمارة المظهرين

يرجاء الإجابة على كافة الأسئلة التالية بقطر واضح

السؤال الأول: كم عمرك؟

السؤال الثاني: لماذا قمت على هذه التجربة؟

السؤال الثالث: هل أنت راض عن حياتك؟

السؤال الرابع: فكر أربعة أشياء تفسر بالنعم لأنك قمت بقطعها أو تخلفك عن قطعها

السؤال الخامس: هل تقوم باستخدام أي مستحضرات التجميل الخاصة بالرجال؟
(سواء كانت مستحضرات تجميلية أو العناية بالبشرة)

السؤال السادس: هل لديك أولاد؟

السؤال السابع: ما هو رأيك في استخدام الرجال لمستحضرات التجميل لتحسين مظهرهم الخارجي؟

السؤال الثامن: إذا طلب منك التفرغ لمدة أسبوع من الآن هل ستطيع ذلك؟ وإن لم ستطيع فذكر الأسباب.

انتهت الأسئلة رجاءكم وللجميع

اندهش «ماضي» من هذه الأسئلة التي لا علاقة لها بمستحضرات التجميل، ولكنه تغاضى عن اندهاشه وشرع في الإجابة دون اعتراض ظناً منه أنهم بالتأكيد يفهمون ما يفعلون ويمكن أن تكون هناك صلة خفية لا يعلم عنها شيئاً، فهو على كل حال ليس خبيراً في هذا المجال، ولكن ماثير غيظه حقاً ولا يستطيع التغاضي عنه هي الجملة الأخيرة «التوفيق للجميع»، توفيق في ماذا بالضبط؟! هذه مجرد تجربة تافهة وليس امتحاناً للثانوية العامة، هو لا يريد أن ينعت «المهمة» بصفة التفاهة، ولكن هذه هي الحقيقة بالرغم من كل شيء. فالموضوع بسيط تجربة فاعلية بعض مستحضرات التجميل وينتهي الأمر لم كل هذا التعقيد؟!

بعد أقل من ربع ساعة أنهى أول الحاضرين الإجابة على الأسئلة وفي هذه الأثناء كان «ماضي» لا يزال يفكر، وحتى بعد انتهاء جميع الحاضرين الذين لا يزيد عددهم الآن عن عشرة أشخاص، وحتى بعد أن بدأت المقابلات كان هو لا يزال يفكر ويكتب. بعد أن انتهى أخيراً أعطى الورقة للسكرتيرة فكان هو آخر من تم إجراء المقابلة معه.

استشارة المتطوعين

يرجاء الإجابة على كافة الأسئلة التالية بقط واضح

السؤال الأول: كم عمرك؟

تقريباً ٧٢ لم أكن قد بلغت بعد لحساب

السؤال الثاني: لماذا قمت على هذه التجربة؟

الجمال

السؤال الثالث: هل أنت راض عن حيلتك؟

لا يمكنني قول هذا

السؤال الرابع: فكر في عدة أشياء تفسى بالقدم لأنك قمت بقطعها أو إتلافك من قبلها

يوجد الكثير ولكن أهم أربعة أشياء مهمة:

عدم حضور جثثه والدي - إهمالي للصانع فيه بالعمل - عدم اللوح بصلياني

أحب عمري - خسار صديق عمري

السؤال الخامس: هل تقوم باستخدام أي مستحضر من مستحضرات التجميل الخاصة بالرجال؟
(سواء كانت مستحضرات تجميلية أو العناية بالبشرة)

لا

السؤال السادس: هل لديك أولاد؟

لا

السؤال السابع: ما هو رأيك في استخدام الرجال لمستحضرات التجميل لتعطي مظهرهم الخارجي؟

لا أعلم حسب كمية الاستخدام إذا كانت للمنايا بالبشرة وما شابه فلا مشكلة

السؤال الثامن: إذا طلب منك التفرغ لمدة شهر من الآن هل تستطيع ذلك؟ وإن لم تستطيع فكر الأسباب.

لا مشكلة لدي الكثير من الوقت

أنتهت الأسئلة ويأتى حق الجميع

طلبت منه السكرتيرة التوجه إلى مكتب «أحمد مكاوي» الذي يعرف مكانه جيداً الآن، دخل المكتب فوجده مكتباً عملياً للغاية يتميز بالبساطة ولكنه أنيق في الوقت نفسه، خلف المكتب الذي يجلس عليه «أحمد» مرآة كبيرة بعرض الحائط، وعلى الحائط الآخر بعض اللوحات الفنية المعلقة التي تمتاز باللونين الأزرق والأبيض فتعطي إحساساً بالراحة، أما المكتب نفسه فكان لونه بنياً داكناً بسيط التصميم، لا يوجد عليه الكثير من الأشياء، مجرد حاسوب في الركن الأيمن وكوب من القهوة على الجانب الأيسر أمامه لافتة صغيرة مكتوب عليها اسم «أحمد مكاوي» بحروف ذهبية.

انتبه «أحمد» لدخول «ماضي» فقام من مكانه ليرحب به. أعجب «ماضي» بالطريقة الودود التي يعامله بها «أحمد» فخف توتره وهدأ قليلاً. تأمل «أحمد» هيئة «ماضي» سريعاً فوجد أمامه رجلاً مسناً ترك العديد من السنوات وراء ظهره، ينتشر الشعر الأبيض على جانبي رأسه في إهمال مثل نُدْف الثلج اللامعة، ولكن يندثر في استحياء عن مقدمة رأسه البارزة بعض الشيء، يرتدي عوينات دون إطار خارجي فتظهر الخطوط العميقة تحت عينيه جلية للعيان،

متوسط الطول يميل إلى القصر قمحي البشرة لا يوجد شئ محدد يميزه، لن يُجفر شكله في ذهنك بسهولة إن قابلته مرة واحدة، لولا أنفه الكبير بعض الشئ الذي لا يتناسب قليلاً مع الفم الصغير الذي يليه. تبدو عليه الجدية حتى إن لم يقصد هو ذلك، فمن المؤكد أنه اكتسب هذه النظرة الجادة من طبيعة عمله التي كانت تفرض عليه هذا طيلة الوقت، لكنه اعتادها فلم يستطع التخلص منها منذ ذلك الحين.

دارت كل هذه الأفكار في ذهن «أحمد» لشوان معدودة قبل أن يبدأ بالكلام قائلاً :

- أولاً أحب أن أشكرك على اهتمامك بالمشاركة في هذه التجربة، قد قرأت إجابتك التي وردت في الاستمارة وأود أن أستفسر عن إجابة السؤال الثامن، أولاً: هل أنت مستعد للقدوم إلى هنا يومياً لمدة أسبوع ابتداءً من غدٍ بما في ذلك الجمعة والسبت وهما عطلة رسمية؟

أجابه ماضي بدون تردد :

- بالتأكيد فليس لدي شئ آخر أهم أقوم به

قال أحمد :

—حسناً، جيد جداً—

ثم أردف قائلاً:

- في الأيام القادمة نريد منك توضيح إجاباتك بصورة تفصيلية، خصوصاً إجابتك عن السؤال الرابع حتى نتعرف أكثر على شخصيتك، هل لديك أي مانع لفعل ذلك؟

صمت ماضى قليلاً قبل أن يجب ثم قال:

- آآاه.. ليس لدي مانع ولكن ما علاقة هذا بمستحضرات التجميل؟

أجابه أحمد :

- هذه المستحضرات طفرة في عالم التجميل ونريد أن نضع لك مكياجاً يعبر عن شخصيتك أنت، يعبر عن مشاعرك أنت فقط.

قاطعه ماضى قائلاً:

- عذراً ولكنني مازلت لا أفهم شيئاً، لماذا يعبر عني أنا وما الذي سوف يدفع الناس لشراء منتج يعبر عني؟

ضحك أحمد وقال :

- لم تفهم قصدي يا سيد «ماضي» ما أريد قوله أن هذا المنتج سوف يعبر عن الشخص الذي يضعه أياً كان من هو، ولأننا في مرحلة التجربة فهازلنا بحاجة إلى معلومات إضافية عن المتطوعين حتى نستطيع التطوير من المنتج قبل أن نطرحه في الأسواق.
قال ماضي وهو يهز رأسه:

- نعم فهمت، على أي حال لا يوجد مشكلة، لدي فقط أخبرني في أي ساعة ستكون المقابلة القادمة.
أجاب أحمد بنبرة آلية بعض الشيء كشخص اعتاد على قول ذات الجملة مراراً وتكراراً:

- لم يتم اتفاق نهائي على المتطوع المختار، وعلى كل حال انتظر مكالمات مساء اليوم من الآنسة «عفاف» سوف تخبرك بالموعد القادم بإذن الله إذا تم وقوع الاختيار عليك، شرفت بمعرفتك يا سيد «ماضي».

قال جملته الأخيرة وهو يتسم ويمد يده لماضي ليصافحه، بادلته «ماضي» السلام وشكره هو الآخر ثم انصرف.



في طريق العودة استرجع «ماضي» المقابلة مع «أحمد مكاوي» ولم يستطع تفسير جملته الأخيرة التي قالها بنبرة محايدة طالما استخدمها «ماضي» نفسه في المقابلات الشخصية التي أجراها على مدار الأعوام السابقة أثناء عمله، وهي نبرة لا تدل على أي شيء فكل الاحتمالات واردة. ضحك من نفسه على اهتمامه الشديد بتجربة مستحضرات تجميل وهو الذي لم يهتم بهذه الأشياء قط في حياته، ولكن عندما سألته عن إذا كان يمانع أن يحكي أكثر عن الأفعال التي ندم عليها، شيء ما تحرك بداخله، شيء لا يستطيع أن يصفه بالضبط ولكنه إحساس أقرب إلى الارتياح ولكنه أكبر وأعمق من ذلك، فهو بالفعل يريد أن يحكي لشخص ما، فهو بلا صديق منذ زمن طويل، ودائماً ما كان يعتبر نفسه كتوماً لا يتحدث عن مشاعره كثيراً، أغلب كلامه كان في نطاق عمله أو عن البورصة والأحوال الاقتصادية فلم يكن لديه الوقت الكافي للتواصل مع ذاته وفهم احتياجاتها. لذلك يشعر بحائط سد بينه وبين مشاعره نفسها لا يفهمها جيداً، هو الآن طفل حائر يحاول اكتشاف مكنونات نفسه من جديد. يريد أن يحكي، أن يتكلم. يريد أن يبوح بما يدور بخلده دون تفكير أو تحضير وأهم من كل ذلك يريد أن يجد شخصاً يسمعه ويهتم بما يقول. وصل

«ماضي» إلى منزله ولكن روحه في مكان آخر. منذ أن طلب منه «أحمد» أن يحكي ماضيه والذكريات تطارده والصور تقفز أمام عينيه. رأى مشاهد قد ظن أنه لم يعد يتذكرها ولكنه اكتشف أنه كان مخطئاً. بعض الأحداث لم يصدق أنه مضى على حدوثها أكثر من ثلاثين عاماً فهي في ذهنه طازجة وواضحة كأنها حدثت بالأمس.

استيقظ طوال الليل بجانب الهاتف، يسلي نفسه بمشاهدة التلفاز ثم ينظر للهاتف بين الحين والآخر عسى أن يكون هناك مكالمة فائتة لم ينتبه لها مثل أي طالب محترم ينتظر نتيجة التنسيق. مر الوقت ولم يتصل به أحد، تُرى هل تم استبعاده، لابد أن «أحمد» كان يحاول فقط أن يكون لطيفاً ولم يرد إحراجه فطلب منه انتظار المكالمة التي يعلم أنها لن تحدث. كم كان مغفلاً فقد ظن أن طريقة «أحمد» الودود كانت بسبب قبوله المبدئي لماضي ولكن يبدو أنه كان يتبع قواعد الذوق لا أكثر. قام «ماضي» من مكانه وظل يمشي في غرفة المعيشة ذهاباً وإياباً دون أن يشعر.. لقد شعر بالغضب والإحباط فبعد أن وجد الأمل يذهب منه هكذا سريعاً. لقد كانت «المهمة» قريبة جداً وكان يضع عليها الكثير من الآمال، فقد حضر الكلام الذي سيقوله

غداً وتدريب عليه في عقله مراراً وتكراراً، لقد أمضى اليوم كله يفكر ويفكر ومع كل فكرة يزيد الأمل بداخله حتى أصبح كبيراً جداً لا يستطيع أن يحمده الآن، حتى أنه شطح بخياله وفكر أن يتخذ «أحمد» صديقاً بعد انتهاء «المهمة»، ولكن بالرغم من كل هذه الأفكار السلبية ظل متمسكاً بالأمل الضعيف حتى غلبه النوم من فرط الإجهاد الذهني فنام في مكانه. سمع صوت هاتف يرن في أحلامه فانقلب على الجهة الأخرى وهو مازال مستغرقاً في نومه، أجفل فجأة وبدأ يميز بين الحقيقة والخيال، فوجد أن هاتفه يرن بالفعل برقم لا يعرفه ولكنه أدرك أيضاً أن الساعة الرابعة صباحاً، لم يتوقع أن يكون المتصل ذا علاقة بالمهمة بل الأقرب للمنطق أن هناك مصيبة ما لدى أحدهم. فأسرع بالرد بيده المرتجفة كالعادة :

- لعله خير.

تمتم في سره فجاءه صوت «أحمد مكاوي» على الجهة الأخرى يقول له:

- صباح الخير يا أستاذ «ماضي»، متأسف على التأخير، وآسف أيضاً على الاتصال في هذا الوقت الباكر.

أعاد صوت «أحمد» الأمل لماضي وأثلج صدره ولكنه حاول الحفاظ على وقاره، فأوضح له أنه لا بأس في ذلك ولا داعي للأسف فأكمل «أحمد» كلامه قائلاً:

- حسناً جداً، لقد وقع الاختيار عليك يا سيد «ماضي» فهل تستطيع المجئ غداً في نفس المكان في حدود الساعة الحادية عشرة صباحاً لنبدأ.

أجابه «ماضي» مرة أخرى أنه لا بأس في ذلك ثم أنهى المكالمة. ولكن أليرقل إن السكرتيرة هي من سوف يتصل به، ثم منذ متى يتم الاتفاق على مقابلات تخص العمل في الساعة الرابعة صباحاً !!

على حد علمه كان يجب أن تتصل السكرتيرة لتحدد معه موعداً ولا يتصل أبداً صاحب العمل شخصياً مهما كانت الظروف، وكان ذلك يحدث في حدود الساعة الثامنة صباحاً إلى الساعة الثانية عشرة ظهراً فقط ليس قبل ذلك أو بعده.

قرر «ماضي» أن يأخذ قسطاً من الراحة حتى يكون على أتم الاستعداد لمهمة الغد، فاتجه إلى غرفة نومه وغط في نوم عميق سريعاً، فهذه الأحداث تعتبر كثيرة جداً

وشاقة على شخص يعيش حياة مثل حياته.

استيقظ قبل الموعد بثلاث ساعات، وطلب اليوم من خادمه أن يعد له إفطاراً ملكياً على غير عادته، فهو في الأيام العادية يأكل أي شيء ولا يسأل كثيراً ولكنه اليوم أملى على الخادم قائمة بوجبة إفطاره المفضلة من الزبد والمربى بجانب (التوست) الأبيض المحمص والجبن والقهوة الفرنسية. فمنذ أن تذوق هذه الوجبة بالعاصمة الفرنسية للمرة الأولى وهي إفطاره المفضل.. تذكره بسحر باريس أو بمعنى أصح سحر مطعم الفندق الباريسي الذي كان يتناول إفطاره به كل يوم على أنغام الموسيقى الباريسية الحاملة. أكل بشهية مفتوحة وهو مستمتع بهذه اللحظة ويفكر بباريس، ترى هل هي جميلة مثل ألحان موسيقاها؟ تحدث إليه الناس كثيراً عنها وذهب هو نفسه إليها عدة مرات، ولكن لم يكن لديه الوقت الكافي كي يعرفها حق المعرفة.

شرع في قراءة الجريدة مثلما يفعل كل يوم وهو يفكر، فأنتهى منها سريعاً حتى يستعد لموعده فلم يبق على الموعد غير ساعتين. ذهب مرة أخرى ليزيل الشعيرات الصغيرة التي نمت على وجهه ثم اتجه إلى غرفة نومه الواسعة بيضاء الحوائط والتي تزدان باللوحات الطبيعية التي تحتوي على صور أنهار وأشجار وفي الحائط المقابل

للسرير لوحة جميلة لثلاثة أحصنة تعدو بسرعة حتى أنك تكاد تراها تخرج من الصورة وتتميز كافة اللوحات بإطار ذهبي موحد يضيف أناقة ملحوظة عليها ويزيد من قيمتها. والغرفة أيضاً ملحقة بغرفة ملابس صغيرة بها الكثير من الأرفف على الجانبين ودولاب بعرض الحائط في مواجهة الباب علق عليه عدد من البذلات المختلفة بنظام وترتيب، دخلها «ماضي» ليختار ملابس، لقد قرر اليوم ارتداء ملابس أقل تحفظاً فقام باختيار قميص أبيض اللون وبنطال زيتي فهذا (الطقم) دائماً ما يجعله أنيقاً. عندما وصل للشقة المقصودة التي كان بها منذ أقل من أربع وعشرين ساعة، رن الجرس ففتحت له السكرتيرة مرة أخرى وطلبت منه الدخول والانتظار قليلاً، وهذا ما قام به بالفعل. بعد فترة قصيرة خرج له «أحمد مكاوي» بنفسه وابتسامة ودود تعلو وجهه ثم قال له:

- أهلاً بك يا سيد «ماضي» يسعدني حقاً رؤيتك من جديد.

رد عليه «ماضي» بابتسامة فأردف أحمد قائلاً:

- تفضل إلى المكتب يا سيد «ماضي» أتمنى أن تكون مستعداً.

دخل ماضي وأكده أنه على أتم الاستعداد، وبعد أن جلس «أحمد» على كرسية بدأ بالكلام:

- كما هو مذكور في الاستمارة أنت تجاوزت السبعين عاماً بأعوام قليلة وأنت أيضاً غير راض عن حياتك، هل لهذا الشعور أي علاقة بإجابتك على السؤال الرابع؟
قال «ماضي» بأسى:

- نعم...

فقال «أحمد»:

- حسناً يا سيد «ماضي» أول الأشياء التي ندمت عليها هي عدم حضور جنازة والدك هل تمنع أن تحكي لي التفاصيل؟

أوضح ماضي مرة أخرى أن ليس لديه أي مانع ثم سرح قليلاً وبدأ يحكي..

«وجهة النظر فكرة مطاطة تعبر عن الشئ ونقيضه،
تكون معك اليوم وفي لحظة أخرى تكون ضدك. فإذا أردت
أن ترى الحياة من زاوية معينة فستجد ملايين الأسباب
التي تؤيد موقفك، وإذا أردت أن تراها من زاوية أخرى
مختلفة تماما فستجد ملايين المبررات أيضا لفعل ذلك؛
فجميعها في النهاية وجهات نظر، ولكن الإنسان بطبعه
محب للاستقرار، لذلك تجده يصنع من وجهات النظر
حقائق ويُسلم بها»

الندم الأول جنازة والدي

تخرجت من كلية الهندسة بجامعة القاهرة بدرجة جيد جداً في عمر الحادي والعشرين عاماً أي في أواخر الستينيات، كان العمل الحكومي له مكانة عالية في ذلك الوقت وكان الموظف الحكومي لا يزال يحظى بالاحترام والتقدير. في زمن الاشتراكية وخطابات «عبد الناصر» المليئة بالحماسة، برغم كل المصاعب التي مرت بها البلاد في ذلك الوقت ولكن الشباب كان مفعماً بحيوية فلسفة «ماركس» اللاسلطوية التي تشمل الأذهان، لديه الكثير من الآمال والطموحات لمستقبل أفضل بدون طبقات الرأسمالية المستغلة، وكنت أنا أحد هؤلاء الشباب، كنت أحاول الاجتهاد في عملي قدر ما أستطيع كي أحقق طموحي وأحلامي. إيماني بالفرص المتكافئة، كان يزيد من حماسي في

العمل، استمر عملي كموظف حكومي عامين، كنت أريد الالتحاق بمنحة دراسية للحصول على درجة الماجستير من الخارج، لم يكن الأمر سهلاً في هذا الوقت خصوصاً مع تقدير عالٍ مثل تقديري، ولذلك حصلت على منحة دراسية للحصول على درجة الماجستير في إحدى الجامعات الأمريكية. وجودي في أمريكا لم يغير الكثير من معتقداتي، كثير من الناس يتعجبون من هذا الشخص الذي يتعرض للكثير من الثقافات المختلفة ومع ذلك يظل كما هو ضيق الأفق. كنت أنا هذا الشخص كان يوجد معي العديد من الجنسيات ولكنني لم أرد التعامل معهم بأي مختلف سيء كما تعلم، حاول أحد زملائي الهنود التقرب مني، كان شخصية ودود، ولكن بعد أن عرفت أنه هندوسي يعبد الأبقار نفرت منه واستغفرت الله، مع أنني إذا كنت أعطيت نفسي الفرصة وكان لدي ما يكفي من سعة الصدر، كنت عرفت الحقيقة أنه يقدس البقر ولا يعبده، ولكنني كنت أثق في معتقداتي إلى أقصى حد، حتى لو كانت خاطئة أو غير منطقية، لذلك تجدني لم أوطد علاقتي إلا مع ثلاثة من زملائي لم يكن بهم أي ميزة غير أنهم من نفس بلدي وثقافتي. الشخص الوحيد الذي أثر فيّ هو الدكتور الأمريكي الذي كان يشرف على رسالتي، فهو شخص عملي، وتقربي

منه زادني عملية فوق عمليتي، فأنا بطبعي شخص عملي وطموح، ولكن معاشره هذا الدكتور ساعدت على زيادة هذه الصفات وسيطرتها على شخصيتي، فنحيت المشاعر جانباً أكثر مما سبق، ولكن تأثري به لم يكن له علاقة بتقبلي للأفكار الجديدة، ولكن لاستعدادي الشخصي للتأثر بهذه الأفكار التي يعتنقها هو شخصياً، فأنا كنت مستعداً لاكتساب هذه الصفات وعندما أتحت لي الفرصة ووجدت شخصاً يحثني عليها نضجت وترعرعت بداخلي، وهذا ما يحدث لنا جميعاً، في الغالب أنت تشاهد المذيع الذي يقول كلاماً على هواك، تقرأ الجريدة التي تؤيد أفكارك حتى بعد اختراع ما يسمى «الفيسبوك» فلا يعجبك المنشور في الغالب إلا إذا كان على خط معتقداتك؛ ولذلك كان من الطبيعي أن أتغير وأصبح شخصية عملية متبلدة المشاعر، وقد تجلّى هذا التغير في أول إجازة لي بمصر عندما اكتشفت تدهور حالة والدي الصحية، حزنت حزناً شديداً لذلك، وذهبت معه لكثير من الأطباء وكان من الواضح أن حالته صعبة جداً، ورأيت قلة الحيلة تطل من عين أمي بين الحين والآخر، وكأنها ترجوني أن أعود لأمكث معهم وأزيل بعض الحمل عنها، كانت تقول كل هذا دون أن تنطق بكلمه واحدة، فقط نظرات، وكنت أفهمها وأقدر

مشاعرها فهي وحيدة، وكانت دائمة الاعتماد على أبي في كل شيء، لكن الآن هو يعتمد عليها كلياً، ومطلوب منها تحمل مسؤوليته ومسئولية البيت والنفقات، وأختي صغيرة لا تستطيع فعل شيء هي الأخرى، بل كانت عبئاً آخر من ضمن أعباء أمي، كنت أدرك كل هذا ولكن حاولت تجاهله.

جاء موعد السفر وبداية العام الدراسي الجديد متوازياً مع تدهور حالة والدي الصحية أكثر، كان من الواضح أن الأمل ضعيف في شفائه وكان عليّ أن أختار، إما المكوث بجانبه في أيامه الأخيرة، وإما مستقبلي الدراسي والمهني. أعتقد أنك تعرف اختياري فلا داعي للتوضيح أكثر، لكن قبل سفري أعطيت أمي القليل من الأموال حتى يستريح ضميري، وقلت لها ألا تتردد في طلب المزيد من النقود إن احتاجت لذلك، قلت هذا الكلام بغير حماسة وشعرت هي بذلك، ولكنني حاولت تجاهل الأمر مرة أخرى. فكرت أن هذا مستقبلي ماذا تريد مني؟! بل إنني بدأت أشعر بالضغط من نظراتها اللائمة، وأنهم عائق في طريق أحلامي فشعرت بالضيق. لم يمت والدي كما كنت

أتوقع، ولكنه عاش يعاني لأكثر من تسع سنوات وخلال هذه السنوات التسع كنت قد عدت من أمريكا بعد أن قضيت بها ثلاث سنوات، عدت بعد حصولي على درجة الماجستير في الهندسة الميكانيكية، عملت في أحد المصانع بالقاهرة الكبرى وبعد عام واحد فقط من العمل هناك تمت ترقيتي وأصبحت نائباً لمدير قسم الهندسة الميكانيكية، وبعد عامين آخرين أصبحت مديراً للقسم ذاته.

استمر هذا الوضع ثلاث سنوات حتى عُرض عليّ إعاره إلى إحدى الدول العربية، وكما قلت لك سابقاً السفر إلى أمريكا غير الكثير من شخصيتي، وسلط الضوء على بعض الصفات وطمس آثار صفات أخرى من الصفات الحميدة التي اكتسبتها، أو ازدهرت في شخصي الإتقان والاجتهاد في العمل إلى جانب الدقة الشديدة وذلك ساعدني كثيراً في عملي وحياتي، ولكن من ناحية أخرى أصبحتُ عملياً أكثر كما أوضحت سابقاً ومادياً جداً، المال له الكلمة الأولى في حياتي ولأنني كنت من أسرة متوسطة تعاني نوعاً ما مادياً، فكان لدي هدف نُصب عيني هو أن أصبح غنياً ميسور الحال، كنت

أحتاج الكثير من الأشياء في طفولتي من لعب وملابس وما إلى ذلك، عندما تزيد طلباتي كان أبي يقول لي :
- عندما تنضج وتعمل اشتر ما ترغب فأنا لا أملك كنزاً لتلبيه طلبات سعادتك.

كنت أحزن كثيراً لذلك، وأشعر بالعجز، ثم أرتدي ملابس القديمة في يأس وأنا أشعر بالقهر، أعلم الآن أن أبي كان يفعل ما بوسعه، ولكنني كنت طفلاً، لدي احتياجات وحسب، لا أرى الأمور مثلما يراها هو، وكانت طريقة أبي قاسية معي كثيراً فكننت أشعر بالظلم وأنه يعاقبني على جرم لم أرتكبه فأبكى بحرقة فكان ينهرني ويقول لي :

-الرجال لا يكونون، إن كنت رجلاً فتصرف مثل الرجال ولا تبك مثل الفتيات، ماذا تركت لأختك الصغيرة ؟

كنت أشعر بالإحراج وأخاف على رجولتي فأكبت مشاعري، ومع الوقت تعلمت ألا أتأثر نهائياً وأفكر بعملية في حل لمشاكلي المادية، ومنذ ذلك الحين قررت أن أصبح غنياً جداً حتى يكون معي الأموال لشراء كل ما حرمني منه والدي سابقاً، وهذا ما حدث ولكن مع تغير بسيط، لقد سحرتني الأموال والمناصب، فكننت (استخسر) أن أصرف ما جمعت من أموال، وأطمع في غيرها، دخلت

في حلقة مفرغة لم أستطع الخروج منها، ولذلك كان من المنطقي قبولى لهذه الإعارة من دون أي تردد، بالرغم من التدهور الزائد في حالة والدي الصحية، كان بالفعل دون مبالغة يعيش أيامه الأخيرة بالمعنى الحرفي، ولكن لم تُفاجأ أمي هذه المرة لاتخاذ قرار السفر مجدداً، فمنذ رجوعي من أمريكا وكل دوري في حياة عائلتي هو إعطاؤهم ما يحتاجون إليه من أموال لا أكثر، كما يقولون وجودي مثل عدمه بالنسبة لهم، سافرت بالفعل وكنت أرسل لهم الأموال باستمرار، فقد أصبح لدي الآن الكثير منها، وكان المال الذي أرسله لهم مجرد فتات لا أكثر. بعد أقل من سنة - كما لك أن تتوقع الآن - وصلتني عبر التلغراف رسالة بموت والدي ويوم الجنازة. كنت في هذه الأثناء مسؤولاً عن تدريب طقم كامل من عمال مصنع جديد ومهندسيه، ولذلك كان يوجد على عاتقي الكثير من الالتزامات أمام أصحاب المصنع وشركائهم الأجانب، فطلب إجازة في هذا الوقت سيضعني في موقف محرج جداً، كنا ملتزمين بجدول زمني محدد مع الشركاء الأجانب فلا يوجد وقت فعلاً لأي ظروف طارئة، ثم إن والدي قد مات بالفعل فما جدوى وجودي الآن بجانبه، هذا ما قلته لنفسي «إن الأمر لم يكن بيدي» أو هذا ما كنت أريد تصديقه، بادرت

بإرسال تلغراف أعزي به أسرتي وأواسي فيه أمي وأختي
كأي شخص غريب.

قاطعه «أحمد» قائلاً :

- آسف على مقاطعتك يا سيد «ماضي»، ولكن ما علاقة
سفرك إلى أمريكا بموت والدك ؟ أم هو مجرد شعور
بالندم لتركه والسفر؟ فكما تقول إنه مات خلال
سفرك الثاني ليس الأول.

رد «ماضي» في حزن :

- بل سفري له علاقة قوية بموته، كنت أنظر للموقف
بأفق ضيق جداً وأنايتي وحبتي لذاتي كانت مثل
الغشاوة على عيني، كان بإمكانني فعل الكثير والكثير
في ذاك الوقت، فأنا كنت أعمل في أمريكا أثناء دراستي
فكنت أجني بعض المال الإضافي وأموال المنحة كانت
تساعدني من الجهة الأخرى، لذلك كان بإمكانني إحضار
والدي للعلاج، كان بإمكانني إنقاذه من الموت...

قاطعه «أحمد» مرة أخرى :

- الأعمار بيد الله يا سيد ماضي هذا عمره قبل كل شيء.

أردف ماضي قائلاً :

- ونعم بالله، أعلم ذلك ولكن هو عاش تسع سنوات من المعاناة كان يمكن أن يعالج علاجاً جيداً ويعيش هذه الأعوام بصحته بدلاً من الآمال الزائفة في الشفاء بين الحين و الآخر والانتكاسات المرضية التي كانت تصيبه بالإحباط، كان يمكن أن يقضي أوقاتاً سعيدة مع أسرته بدلاً من قضاء تسع سنوات بين الأطباء والمستشفيات، حتى عندما مات، أنايتي ومشاعري الجافة جعلتني أرى هذه المحنة مثل المعادلة الحسابية المجردة من المشاعر، هو مات إذاً لا جدوى من وجودي، لم أفكر في أمي وأختي المسكيتين، لم أدرك أنهما بحاجة لي الآن أكثر من أي وقت مضى، لم يأت بخاطري الأعباء والأحمال التي كانت تثقل كاهلها، لم أشعر بالفجوة التي حدثت بيني وبينهما في حينها، هذه الفجوة التي لم تستطع الأيام أن تحوها، لم أر أختي التي كبرت قبل الأوان وأمي التي مرضت ولم تعد تحمل أكثر من ذلك، كنت مغيباً يعميني الطموح والسعي وراء الأموال.

صمت «ماضي» بعد الجملة الأخيرة، وبعد برهة من الصمت المتبادل بدأ «أحمد» بالكلام :

- لك كل أسفي يا سيد «ماضي»، لقد فهمت الآن هذه النقطة وأشاركك الحزن الشديد، وأرجو من الله أن يجعل مثوى والدك الجنة وأمواتنا جميعاً بإذن الله.

بادره «ماضي» بقول آمين، ثم استأنف «أحمد» كلامه :

- حسناً يا سيد «ماضي» نتقل إلى الندم الثاني وهو: انشغالك المبالغ فيه بالعمل وجمع المال، ولقد أوضحت هذا في إجابتك الأولى عن عدم اهتمامك العام بأسرتك بسبب انشغالك بالعمل والمال، هل يوجد شيء آخر تريد أن تضيفه منعه عنه انشغالك بالعمل وجمع المال؟

أجابه «ماضي» :

- نعم يوجد أشياء أخرى.

فطلب منه «أحمد» أن يحكي له التفاصيل فانصاع له وبدأ يحكي بالفعل...

الندم الثاني

انشغالي بالعمل وجمع الأموال

من الطريف أن الهندسة الميكانيكية لم تكن حلم الصغر أعلم أنك قد تتفاجأ بهذا، ولكن كان حلم الطفولة أن أصبح عازفَ كمان، كانت تسحرني هذه الآلة، ما كل هذا الجمال؟! كانت ساحرة ورائعة أكثر من قدرتي على الاحتمال، الكمان هو الآلة الوحيدة من وجهة نظري القادرة على التعبير مثل الإنسان، في بعض الأحيان تشعر أنها تبكي وفي أحيان أخرى تشعر أنها تطير من السعادة، كنت أميل لسماع الموسيقى الغربية والشرقية، وكان الكمان متفوقاً في الاثنين، عند سماعي لأي أغنية يكون صوت الكمان طاغياً على صوت أي مطرب مهما كان هذا المطرب بارعاً، هل لاحظت أن الكمان يستطيع التأقلم مع أي موسيقى أكثر من آلات أخرى كثيرة؟ مثلاً الجيتار غربي

جداً والقانون شرقي جداً، لكن الكمان مختلف فهو يندمج مع كل نوع موسيقى كأنه جزء أصيل من ثقافتها، هل استمعت إلى أغنية «عبد الحليم حافظ» رسالة من تحت الماء؟ من الظلم إعطاء الفضل كاملاً لعبد الحليم و نزار قباني، فقد كان للكمان دور رئيسي في هذه الأغنية لا يمكننا إغفاله، فهي كانت روح هذه المعزوفة، هي من تنقل لك الأحاسيس واحداً تلو الآخر، تشعر بالفرح ثم الحزن أو الشجن عندما كان يقول «عبد الحليم» :

«إن كنت حبيبي ساعدني كي أرحل عنك

وإن كنت طيبي ساعدني كي أشفى منك»

كان الكمان يواسيه ويأسف لحاله، وعندما كان يناجي حبيبته ويقول :

«يا من صورت لي الدنيا كقصيدة شعر

وزرعت جراحك في صدري وأخذت الثأر»

كان الكمان يلوم حبيبة «عبد الحليم» على ما فعلته به، وبرغم كل هذا الحب لهذه الآلة الساحرة لم أعرف يوماً أسرارها أو أتعلم لغتها. ذات يوم صارحتُ والدي بما أكنه من مشاعر لهذه الحسنة، وطلبت

منه أن أتعلمها ولكن رده كان صارماً وحازماً قال لي :

- هل تريد أن تكون مزيكاتي تعزف خلف الرقصات !!

وطلب مني أن اهتم بدروسي وأجتهد بها حتى أتعلم شيئاً ذا فائدة وطلب مني أيضاً أن أنسى هذا الموضوع برمته، شعرت بالإحباط بعدها ولكن مع الوقت بدأت أرى المنطق في كلامه فاقنعت به وركزت على دروسي ومستقبلي، ولكن أنت لا تختار الحب، ولكنه هو من يختار لك لذلك ظل حب الكمان كامناً بداخلي لم أستطع التحكم به أو إقصاءه، ولكنه كان حباً خجولاً مدفوناً في أعماق أعماقي لا أصرح به لأحد . في بعض لحظات الضعف عندما أرى عازف كمان متمكناً يجيد العزف تتأجج مشاعري وأتمنى أن أكون مكانه، أتمنى أن تصدر هذه النسمة الرقيقة من بين يدي أنا، لكن حمداً لله كانت هذه مشاعر مؤقتة تنتهي بمجرد إنتهاء المعزوفة، حتى عندما نضجت وأصبحت مستقلاً مادياً ومعنوياً لم أحقق هذا الحلم، كنت أنظر له على أنه شئ ثانوي فلدي أولويات أخرى يجب علي تحقيقها، فلا يوجد وقت في جدولي لهذه التفاهات، كنت أوسي مشاعري الدفينة وحيي الخفي للموسيقى بأن أستمع لها، وأعتبر نفسي خبيراً بها لمجرد حبي لها لا أكثر، فلم يعد

تعلم الكمان شيئاً مهماً بالنسبة لي في ذلك الوقت وهذا ما أندم عليه الآن ندماً شديداً، ماذا لو كنت تعلمت العزف عندما كان لدي الوقت لفعل ذلك، كان سيؤنس وحدتي في هذه الأيام المملة، أو على الأقل كان سيصبح لدي ذكريات معه، أتذكرها وأبتسم، أنا لم أحرم نفسي فقط من الحياة مع الموسيقى، بل حرمت نفسي أيضاً من الذكريات الجميلة.

سرح «ماضي» قليلاً فشعر «أحمد» أنه لم يعد معه في المكان ذاته، فعقله وروحه في مكان آخر، فقال ليعيده إلى أرض الواقع :

- أنا لم أتوقع منك هذا الكلام فانطباعي عن شخصيتك كان مختلفاً، لم يخطر ببالي أن تكون بهذه الحساسية.

ابتسم ماضي وقال :

- نعم معك حق، أنا أيضاً لم أعرف ذلك إلا مؤخراً عندما أدركت الحقيقة المرة، ولكن دعني أقول لك لم يكن هذا حلم الطفولة الوحيد كان لدي حلم آخر، أو بمعنى أصح فكرة كنت أطمح إلى تنفيذها.

قال أحمد:

- من فضلك احك لي عنها.

فأذعن له وبدأ يحكي...

في سن العاشرة كنت قد بدأت لتوي إدراك معنى الموت والحياة، وأعرف أن هناك قوماً عاشوا في هذا العالم قبلنا وماتوا، وأنه سوف يأتي قوم آخرون بعدنا وهكذا...

فكنت دائماً أقول لنفسي إنه من المستحيل مقابلة أي من الأشخاص السابقين أو اللاحقين، فلا بد أن أنتهز الفرصة في مقابلة كل شخص حي يرزق على هذا الكوكب، فنحن بالنسبة لكل من عاش أو سوف يعيش على هذا الكوكب عدد قليل، فلم لا نستغل هذه الفرصة التي لن تتكرر ونتعرف على بعضنا البعض؟!

فقررت أنه إذا أتيحت لي الفرصة فسوف أقوم على الأقل بمصافحة يد كل شخص يعيش حالياً على هذا الكوكب، وبالفعل أتيحت لي الفرصة على الأقل للتعرف على بعضهم ولكنني لم أنتهزها.

قاطعه أحمد متسائلاً :

- لم ذلك، فهذه فرصة مذهلة لا ينعم بها الكثير من الأشخاص.

رد عليه ماضى :

- كما قلت لك سابقاً إن الأولوية الأولى والأخيرة في حياتي كانت للعمل وكانت أغلب سفرياتى بغرض العمل إما لحضور مؤتمرات أو تدريب وما إلى ذلك، وفي أوقات فراغى كنت أحضر للعمل المطلوب في اليوم التالي، في كل سفرة خارج البلاد كنت أقول لنفسي غداً سأذهب لتفقد المكان ولكن لم يأت الغد أبداً، وفي بعض الأحيان كنت أفكر في السفر لبلد جديد من أجل الاسترخاء والراحة من متاعب العمل، ولكنها كانت تبقى مجرد فكرة، حتى في المرات القليلة التي قمت فيها بالسفر داخل «مصر» للاستجمام، كانت السفرة كلها عبارة عن مكالمات هاتفية تخص العمل، وبالرغم من التعامل مع الكثير من الأشخاص بمختلف الجنسيات لكنني لم أفكر أبداً في النظر لهم كأشخاص، أو حتى السعي وراء إنشاء علاقة إنسانية معهم، كانوا بالنسبة لي زملاء عمل لا أكثر. عندما أفكر في كل هذا الآن أشعر بالغيظ من نفسي، وأكره أفقي الضيق، كان كل شئ أمامي متاحاً لي، وقد أعطاني الله الكثير من الفرص الذهبية كي أحظى بحياة مفعمة بالمغامرة والحيوية، أتساءلُ دوماً كيف

كنت أعمى هكذا، كيف وصلت لما أنا فيه الآن؟!
علق «أحمد» على كلامه قائلاً :

- معك كل الحق يا سيد «ماضي»، في كثير من الأحيان تكون سعادتنا بين أيدينا ويمكننا الحصول عليها بأبسط الطرق، ولكننا نبذل الكثير من الجهد الذي لا طائل منه بالسعي خلف أوهام نعتقد أنها ستكون سبب سعادتنا، ولكن للأسف دوماً ما ندرك الحقيقة بعد فوات الأوان..... حسناً هل لديك أي شيء تريد إضافته في هذه النقطة؟

أجابه ماضي بالنفي، فقال له أحمد :

- جيد جداً، لقد انتهينا اليوم وسوف أنتظرك غداً في الموعد نفسه لتحكي لي عن الندم الثالث، وهو عدم البوح بمشاعرك لحب عمرك هل أنت مستعد؟

أجابه «ماضي» بالإيجاب، ثم انصرف، وجاء بالفعل في اليوم التالي في مواعده وطلب منه «أحمد» أن يبدأ بسرد التفاصيل وهذا ما حدث بالفعل.

الندم الثالث

عدم البوع بمشاعري طبع عمري

أثناء عملي بالمصنع قابلت «سما»، هذا الاسم لم يكن رائجاً في ذلك الوقت، ولكن لا أجد أحداً أجدر به منها كانت تعمل معي في القسم ذاته وكانت على درجة عالية من الكفاءة، فهي من ذاك النوع النادر الذي يجمع بين الجمال والذكاء. قمحية الوجهة تميل إلى البياض متوسطة الطول ليست طويلة أو قصيرة، ولكنها دائماً تفضل ارتداء الكعب العالي، لا أتذكر يوماً واحداً رأيته بدونه. وجهها مستدير وملاحظها طفولية أنفها صغير جداً لا يكاد يرى بالعين المجردة، ولكنه يترك المساحة لتظهر شفتاها الخلابتان جلية للناظرين، أما النمش الخفيف الذي يتناثر على وجنتيها فيزيد من جمال شعرها الأحمر حُمر الغسق، كانت «سما» مثل السماء بالفعل فمن الظلم

وصفها بالقمر أو الشمس فهي القمر والنجوم والشمس والكون كله. عندما كنت أراها صباح كل يوم كان عالمي يضيء فجأة وأشعر بنسمات برد خفيفة تدغدغ مشاعري فترتعش أوصالي. يمكنك أن تسمي هذا حباً من أول نظرة، ولكن كنت أشعر أنه شيء أعمق وأكبر من هذا، فمجرد وجودها في الدنيا ورؤيتها كل يوم كان كافياً بالنسبة لي، وكانت كل هذه المشاعر غير مفهومة فأنا لم أعط اهتماماً جاداً في حياتي لهذا الشيء المسمى بالحب، وكنت دوماً أعتقد أنني سوف أتزوج إنسانة بمواصفات معينة، ليس الحب من بينها، ولذلك لم أكن أفهم تلك المشاعر فهي مشاعر قريبة لما شعرت به تجاه الكمان، وكان الشبه بين «سما» والكمان كبيراً بالفعل هما الاثنان يعزفان على أوتار روحي، حاولت تجاهل هذه المشاعر كثيراً لم يكن لدي في هذا الوقت الأموال الكافية فلم أكن مستعداً للزواج، ولكنني لم أستطع منع نفسي من الشعور بالسعادة عند رؤيتها أو عند التحدث معها، طلبت منها عدة مرات أن نتناول فنجاناً من القهوة معاً بعد العمل وكانت توافق، كنا نذهب إلى إحدى الكافيتريات القريبة من منزلها، كافيتريا صغيرة على النيل متواضعة الأثاث، مجرد مقاعد ومناضد خشبية متراسة بمواجهة النيل، برغم بساطة هذا المكان

لكن إطلالته كانت رائعة، بالإضافة إلى الهدوء الذي كنا نتوق إليه بعد يوم عمل ملئ بالأحداث، كان يبث الراحة بداخلنا خصوصاً في فصل الخريف، لسعة البرد الخفيفة كانت تحثنا على الكلام والبوح بمكنونات أنفسنا دون تفكير سابق، كنا نتحدث لساعات ونحن نستمتع بمشهد النيل الهادئ، أو بمعنى أصح هي نتحدث وأنا أسمع ألحانها باستمتاع شديد، خرجنا كثيراً وضحكنا كثيراً، كانت هي الفرحة الوحيدة في حياتي وقتها، وكانت تلك السويقات القليلة التي أقضيها معها هي الوقت الوحيد الذي أترك فيه العنان لروحي لتحلق في سماء «سما»، وبالرغم من كل هذا وبالرغم من تذوق طعم السعادة لأول مرة كان عقلي يقف لي بالمرصاد ويذكرني في كل لحظة بالواقع، فأتردد وأبعد عنها فجأة دون مقدمات ثم يغلبني الشوق فأعود، كانت هي تستانء، لذلك كنت أتحجج بحالة والدي الصحية فكانت تسامحني، كل هذا دون أي وعود أو بوح حقيقي بحبي لها، كانت صبوراً وأعطتني الكثير من الفرص والكثير من وقتها، ولكن عقلي دائماً ما يغلبني فأترجع.

«اشتقت إليك فعلمني أن لا أشتاق

علمني كيف أقص جذور هواك من الأعماق»

جاءني في ذاك الوقت عرض الإعارة وقلت هذه فرصة جيدة لجمع المال والعودة للزواج بها عندما تصبح الظروف مناسبة، وبالفعل جمعت الكثير من المال وعدت للعمل في المصنع مرة أخرى، ولكنني فوجئت بزواجهما من أحد زملائنا، كنت أرى نظراته لها من قبل ومحاولاته في التقرب منها، ولكن كنت أعلم أنها تحبني أنا حتى إن لم تقل ذلك صراحةً. حزنت كثيراً وشعرت بالخيانة وألقيت اللوم عليها بيني وبين نفسي، فماذا كانت تريدني أن أفعل؟! أن أضحي بكل شيء من أجل أن أتزوج، أنسى طموحي ومستقبلي كي أنشئ أسرة!! من أين آتي بالمال لألبي احتياجات البيت ومصاريف الأطفال والمدارس؟! شعرت بالغضب ورأيته مذنبه، فهي كانت تريد أن تكون عائقاً في طريق أحلامي، وعندما رفضت أنا ذلك عاقبتني وتزوجت شخصاً آخر، وهذا ما كنت أؤمن به وقتها أو ما كنت أريد أن أصدق...

«علمني كيف تموت الدمعة في الأحداق»

علمني كيف يموت الحب وتنتحر الأشواق»

لم أتحمل رؤيتها كل يوم في المصنع هي وهذا الزميل، كنت أظاهر بعدم الاهتمام، كنت أصدق فعلاً أنني غير مهتم، لذلك بعد مدة قصيرة قررت ترك المصنع وإنشاء شركتي الخاصة مع صديقي «فتحي كامل». كان السبب الرئيسي لاتخاذ هذا القرار هو البُعد عن «سما» بأي طريقة، ولكنني لم أعترف بذلك قط. كنت أقول لنفسي هذا هو الوقت المناسب للاستقلال وأن من الأفضل لي أن أكون رئيس نفسي وأنا أولى بمجهودي هذا، فأنا أبذل المجهود وأتعب، وفي النهاية الأموال الحقيقية تذهب لصاحب المصنع وكلام كثير من هذا القبيل، كانت أمي تلح علي كثيراً كي أتزوج مثلها مثل أي أم مصرية فقد شارفت على الأربعين عاماً، وأختي الصغيرة قد تزوجت منذ زمن بعيد وأمي كبرت في السن؛ لذلك تريد أن تطمئن علي وتري أولادي قبل أن يتذكرها الرحمن ولكنني دوماً كنت أجيبها مازحاً:

- لماذا أتزوج وأنفق كل أموالى على امرأة غريبة لا يوجد بينى وبينها صلة قرابة ؟ أنت وأختى أولى بذلك يا أمى .

كانت هي تسمع هذا الكلام في عدم رضاً ولا تعلق، كنت أنا أقول هذا، ولكن السبب الحقيقي هو أنه عندما أنظر للسما فلم أكن أرى إلا «سما»، وعندما يذكر أحدهم لفظة «نساء» فلم أكن أتخيل غير «سما». ولكن عندما أنسى وجودي وأسرح في قمرها ونجومها أتذكر أنها تركتني وباعتني بثمان بخس، فأحاول أن أشتت انتباهي وأفكر في أي شيء آخر، والمضحك في الأمر أن «سما» كانت سبباً في نجاح شركتي، فكبريائي كان يريد أن يشعرني أن «سما» بلا قيمة حقيقية بالنسبة لي، فكان الانهماك الزائد في العمل هو ملاذي الوحيد، بعد عدة سنوات اعتقدت أن «سما» كانت صفحة وانطوت من حياتي تماماً، ولم أعد أفكر بها نهائياً. نجح العمل في تشتيت انتباهي عن حبي لسما وانزوى هذا الحب بجانب حبي الأول للكمال فلم يعد ظاهراً.

«إن كنت أعز عليك فخذ بيدي

فأنا مفتون من رأسي حتى قدمي»

مقاومتي الشديدة لهذه المشاعر جعلتني شخصية قاسية أكثر، وسوف ترى نتيجة قسوتي هذه لاحقاً ولكن هذا ليس الوقت المناسب، المهم بعد عدة سنوات على هذه الحال التقيت بإحدى الزميلات من دولة أجنبية انبهرت بها وبنشاطها وحبها لعملها، إلى جانب قدرتها على الاستمتاع بحياتها، اقتربنا من بعض أكثر وبدأ يحدث بيننا استلطاف ولكن فجأة بدون أي سابق إنذار أعلنت «سما» عن وجودها، ولم أعد قادراً على خوض هذه العلاقة الجديدة، حدث ذلك رغماً عني، لم أكن أتوقعه، حاولت في البداية المقاومة وحاولت إقناع نفسي بمميزات هذه الفتاة الجديدة وأنها أفضل من «سما» بكثير، ولكن كلما زادت مقاومتي زادت سيطرة «سما» عليّ. بعد هذه التجربة أصابني الإحباط وقررت عدم خوض أي تجارب من هذا النوع مجدداً.

هل تعلم شيئاً أنا لا أتذكر حتى اسم هذه الفتاة ولا أعرف إذا كنت أكن لها مشاعر في قلبي في ذلك الوقت أم أنه مجرد انبهار بفتاة أجنبية لا أكثر، ولكن الغريب أنني أتذكر «سما» جيداً، أراها الآن أمامي وهي تضحك ثم تنظر للأرض سريعاً في خجل، أراها وهي ترتدي فستانها المفضل قرمزي اللون الذي كنت أذوب في أنسجته. أتذكر الكافيتريا التي كنا نجلس فيها وكلامها لي عن حياتها ووالدها وحبها الشديد له، وللأسف أتذكر يوم رأيته في المصنع بعد أن تزوجت وهي تتحدث مع زوجها والسعادة تطل من عينها. عندما أسترجع هذه الذكريات الآن أدرك مدى غبائي، كان هناك الكثير من الحلول ولكنني لم أراها حينها، كان من الممكن أن أتقدم لخطبتها وأشرح لها ظروفى، أو على الأقل كان بإمكانى البوح بحبى لها ولكنني لم أفعل؛ لأن أنانيتى أعمتني ولم أر غير نفسى كما تعلم، ويا لسذاجتى عندما تزوجت ألقىت عليها اللوم لاستئناف حياتها، ترى كم تعذبت؟ كم من الوقت انتظرت حتى فقدت الأمل، بالتأكيد كرهتني لتركي لها هكذا، بالتأكيد شعرت أنها بلا قيمة لى وأنها كانت تتوهم. آه... لو أستطع فقط أن أقول لها كم كنت أحمق! وأنى لم أعرف الحب ولم أر الشمس والنجوم والقمر إلا عندما رأيتك أنت يا «سما».

تجمعت الدموع في عين «ماضي» فقرر «أحمد» التدخل
وقال له :

- حسناً يا سيد «ماضي» هذا يكفي اليوم أعتقد أنك
تحتاج قسطاً من الراحة، دعنا ننهي المقابلة الآن ونكمل
غداً الحديث عن ندمك الرابع والأخير وهو خسارتك
لصديق عمرك.

نهض «ماضي» من على كرسيه واتجه نحو الباب دون أن
يعلق بكلمه واحدة.

الندم الرابع

خسارة صدق العمر

وصل «ماضي» في موعدة كالعادة وفتحت له السكرتيرة مثل الأيام السابقة، وقالت الكلام الذي صار يحفظه عن ظهر قلب ثم دخل إلى مكتب «أحمد مكاوي» وبعد السلام والبدايات المعتادة أسرع أحمد بالكلام :

- لم أريد أن أتكلم أمس لما كنت عليه من حالة نفسية سيئة للغاية منعني من التعليق ولذلك آثرت الصمت، أتمنى أن تكون بخير اليوم.

هز «ماضي» رأسه بالإيجاب وأوضح أنه أفضل حالاً اليوم، فأردف «أحمد» قائلاً :

- جيد جداً، دعني أقول لك شيئاً يا سيد «ماضي» فأنا لم أقابل شخصاً في حياتي أعطاه الله كل هذه الفرص

النفيسة وأضاعها جميعاً وانجرف وراء أوهام، والحق أقول لك هذا شئ مذهل حقاً.

ظهرت علامات الضيق على وجه «ماضي» فحاول «أحمد» معالجة الموقف قائلاً:

- أنا آسف إن كنت سببت لك أي نوع من الضيق ولكنني لم أستطع تمالك نفسي، على أية حال لندع الثثرة جانباً ونكمل ما جئنا من أجله.

وبدا «ماضي» يحكي كما هي العادة...

لم أذكر لك الكثير في الأيام السابقة عن صديقي «فتحي كامل» بالرغم من دوره الكبير في حياتي. بدأت معرفتي به في المرحلة الثانوية كان يسكن معي في البناء الذي أسكن به، ووصل إلى مسامعي أنه انتقل حديثاً إلى المدرسة التي أدرس بها، ولكنني لم أعر الأمر اهتماماً فلم أكن كثير الاختلاط بجيراني. ذات مرة قابلته مصادفة على درج البناية وتصافحنا ثم عرض عليّ أن نذهب سوياً إلى المدرسة فوافقت، ومنذ ذلك الحين بدأنا الذهاب إلى المدرسة معاً كل يوم، كنا نتحدث كثيراً لنضيع الوقت وعرفت عنه الكثير من

التفاصيل، وهو أيضاً عرف عني الكثير، اكتشفت أنه يحب الكمان، ومنذ ذاك اليوم اعتبرته صديقي، كانت هذه لحظة فاصلة في علاقتنا، هو من عرفني على الهندسة الميكانيكية ومن حبه لها أحببتها أنا أيضاً، كنا نذاكر سوياً أغلب الأوقات أثناء الدراسة الثانوية وحتى أثناء الجامعة، كان «فتحي» شخصاً معطاءً وطيب القلب فلم ييخل علي بمعلومة أبداً، وكان يشرح لي دوماً إذا استعصى عليّ أمر. وإذا قلت أن «فتحي» كان بمثابة أخ لي فلن أكون مبالغاً وأنا أيضاً كنت بمثابة أخ له، وقد اكتفيت به كصديق وأخ فلم أتقرب من أي شخص آخر بعدها، كنت دوماً ما أضع حدوداً بيني وبين الناس، أقرب شخص لي غير «فتحي» كان مجرد زميل. بعد رجوعي من أمريكا كنت أبحث عن عمل كان هذا عصر الانفتاح والرأسمالية فكنت أتمنى العمل في القطاع الخاص وهذا ما ساعدني فيه «فتحي»، كان يعمل في المصنع الذي تحدثت عنه من قبل، وقد فاتح مدير المصنع في أمر تعييني، أي نعم معي شهادة ماجستير من أمريكا وتقدير العام جيد جداً ولكن وقوف «فتحي» بجانبني كان له فضل كبير في حصولي على هذه الوظيفة التي كنت أحلم بها في أسرع وقت ممكن، حتى عندما تمت ترقيتي لم أر في عينيه حقداً أو غيرة بالعكس عندما

كان يستعصي عليّ أمر كان يساعدي فيه مثلما يفعل دوماً، لكن صداقتي بفتحي لم تجعلني أنحاز له على حساب أحد الموظفين فكان الجميع عندي سواسية، كنت أفصل دوماً بين علاقتنا الشخصية وبين علاقتنا المهنية، ولكنني كنت أزيل هذا الحاجز عندما أحتاج منه مساعدة وبالرغم من ذلك فهو لم يتردد لحظة في مساعدتي، وكان يتفهم أن ما أفعله كان لصالح العمل وهو يحترم هذا التصرف ويقدره. عندما ذهبت للإعارة قالوا لي إنهم بحاجة إلى مهندسين ذوي كفاءة عالية وسألوني إن كنت أعرف أحداً كي أرشحه لهم، فلم أرشح «فتحي»، قلت لهم إنني لا أعرف أحداً، قلت لنفسي في ذاك الوقت إنني مازلت جديداً وهذه بلد غريب أريد أن أثبت نفسي فيه، فماذا إذا قمت بترشيحه ولم يكن عند حسن ظنهم؟ سيحملونني أنا أخطاءه؛ لذلك لم أكن أريد المخاطرة بانطباعهم الجيد عني، عندما أفكر في هذا الموقف الآن أسأل نفسي هل كان هذا حقاً الدافع الحقيقي، أم أنني كنت أدرك مدى تفوق «فتحي» ومدى اجتهاده، هل كنت أخاف من شخصيته الطيبة المحببة للنفس؟ والأهم هل كنت أخاف أن يأخذ مكاني؟

حقاً لا أعرف، ولكن كل ما أعرفه هو أن هذه المبررات الواهية لم تكن الحقيقة، وأنه كان بإمكانى مساعدة صديقي وتحذلت عن فعل ذلك عندما أتيحت لي فرصة لرد الجميل، أو حتى رد القليل منه. صمت «ماضي» قليلاً ثم أكمل حديثه بالحماسة نفسها السابقة متناسياً هذه الأفكار.

ما كنت أحبه في «فتحي» حقاً أن صداقتنا لم تكن تتأثر ببعد المسافات، فبالرغم من سفري عدة سنوات إلا أننا كنا على تواصل دائم، وكان يشجعني دائماً، حتى أنه أرسل لي (تليجرام) خصيصاً قبل موعد رجوعي إلى مصر حتى أشتري له سجائره المفضلة من السوق الحرة، فقد بذل الكثير من المجهود حينها كي تصلني هذه الرسالة، ولكن قدوم سجائره كان بأهمية قدومي أنا شخصياً فلم اتعجب لما فعل، وبعد عودتي كنا نتعامل كأن شيئاً لم يكن، وكأن هذه السنوات كانت مجرد أيام أو ساعات، وكما قلت لك اكتشافي للخبر التعيس بزواج «سما» فلم أحتمل المكوث في هذا المصنع كثيراً، أردت أن أفتح مشروعاً خاصاً بي، ولكنني لم أرد استنزاف كل مالي من أموال فعرضت على «فتحي» مشاركتي في إنشاء شركتنا الخاصة فوافق على الفور، وأثنى على الفكرة. طبعاً قلت له إنه

يجب علينا التقدم، وأن هذا عصر الفرص، وأنه لا يوجد لنا مستقبل باهر إن ظللنا في موقعنا هذا نحن نجتهد من أجل غيرنا وهو يأخذ كل الخيرات، وما إلى ذلك.

لهذا ضحى «فتحي» بكل ما يملك من أموال لأجل هذا المشروع - هذا ما عرفته فيما بعد - ولإيمانه الشديد بي بجانب ثقته في كل هذه الأسباب كان هذا كافياً بالنسبة لفتحي كي يخوض هذه المغامرة وهو مطمئن، وبالفعل أنشأنا شركة للتصميمات الهندسية، في البداية كانت تقتصر على الهندسة الميكانيكية، ومع الوقت تطورت وأصبحت تشمل العديد من الأقسام، وحتى أعمال المقاولات، فكنا نأخذ المشروع كاملاً من بداية التصميم حتى نهاية التنفيذ، كانت الخطوة الأولى التي ساعدت على نجاح الشركة هي علاقات «فتحي» بالعديد من العملاء الذين يثقون به ويحبونه فساعدونا كثيراً في البداية، وتعرفت أنا أيضاً عليهم بواقع الأمر وأنشأت علاقة جيدة معهم ومع غيرهم.

أنالمر أقل لك إنني شخصية ودود واجتماعية جداً فيما يخص العمل لذلك كان من السهل عليّ إنشاء علاقات جيدة، والغريب أني برغم ضيق أفقي في الكثير من الأمور، فإنني كنت أمتع بجزء إبداعي لا بأس به فيما

يخص العمل أيضاً، وإذا فكرت في الأمر ستجد أنه كان بإمكانني أن أصبح شخصاً أفضل على المستوى الشخصي والاجتماعي، ولكنني لم أهتم بذلك للأسف ولم أبذل الجهد الكافي لأكون كذلك. الوقت الوحيد الذي كنت فيه هذا الشخص الاجتماعي كان مع «سم»..... فقط «سم».

صمت «ماضي» قليلاً فأراد «أحمد» جذب انتباهه من جديد فقال :

- كل هذا جميل جداً ولكنني لم أر أي مشكلة حتى الآن يبدو أن علاقتكما وصداقتكما كانت مثالية، تحسدان عليها.

ضحك «ماضي» وقال :

- نعم يبدو أن الحسد هو السبب بالتأكيد، سوف أكمل لك وستفهم كل شيء الآن.

كان كل شيء يسير على ما يرام، وكنا نتقل من نجاح إلى نجاح، حتى أنه حدث تطوير الشركة وتوسيعها في وقت أقصر من المخطط له؛ بسبب الفوز بمناقصة مشروع كبير سيوفر عملاً لعدة سنوات قادمة، وكان هذا متوازياً

مع توقيت قدوم ابنة «فتحي» الثانية «سعاد» لهذه الدنيا، فكانت «سعاد» وش السعد علينا كما كانت أختها «منى» من قبل، فقد تزامن قدوم «منى» إلى الدنيا مع زمن إنشاء الشركة؛ لذلك كنت أحبهما وأتفاعل بهما. وفي خلال السنة التالية كانت الشركة في قمة نجاحها ولدينا الكثير والكثير من الأعمال والمشاريع، كنا نعمل مثل النحل فعلاً بسبب أوقات التسليم والتعديلات التي يطلبها العميل والتي يجب أن تنتهي منها قبل الوقت المحدد لذلك كنا نعمل ليل نهار، وفي يوم من الأيام طلبت من «فتحي» أن يهتم هو بأمر المشتريات حتى أتمكن أنا من الإشراف على المهندسين بنفسى كي ننفادى أية أخطاء أو تأخير وهذا ما فعله «فتحي» بالفعل، وفي يوم من الأيام التالية دعوت «فتحي» إلى مكتبي وكنت في قمة العصبية بسبب الضغط الشديد الواقع على عاتقي فقلت له بتهكم واضح - مشيراً إلى سلسلة مفاتيح سيارته الجديدة التي كان يحملها في يده قبل أن يضعها أمامي على المكتب :-

- يبدو لي أن نسبته من الأرباح لم تعد تكفي مصاريف السيارة الجديدة فبدأت تبحث عن مصادر دخل أخرى.

لم يستوعب «فتحي» كلامي في البداية فقال مستفسراً :

- ماذا تقصد يا «ماضي»، لم أستطع فهم ما تلمح إليه.

قلت بغضب وصوت مرتفع :

- أنا لا ألمح لشيء يا «فتحي»؛ فكل شيء واضح مثل الشمس أمامي.

قلت جملةتي الأخيرة وأنا أخبط على المكتب ممسكاً بالأوراق في يدي ثم أردفت متسائلاً بالنبرة نفسها:

- أريد منك تفسير حالاً لما وجدت في هذه المستندات.

فقال فتحي بصدق لم أصدقه أنا وقتها :

- ماذا وجدت يا «ماضي» أنا فعلاً لا أفهم شيئاً أرجوك وضح لي قصدك.

- لا تلعب معي هذه اللعبة يا «فتحي»؛ فوجهك الطيب هذا لن يؤثر عليّ هذه المرة، أنا أعلم جيداً أنك تفهم قصدي ولكن سأوضح لك ما أرمي إليه، أين فواتير المشتريات التي كلفتك بشرائها؟

قام «فتحي» بسحب علبة سجائره وأشعل سيجارة كعادته عندما يتوتر ثم قال بغضب واضح :

- كلفتني!! أنا أملك هذه الشركة مثلك بالضبط، لا أعمل لديك ثم إنى نسيت أن آخذ فواتير هذه المرة بسبب ضغط العمل لم أنتبه لها.

- لم تنتبه!! عذر أقبح من ذنب، هذه الأعذار غير مقبولة من مالك شركة محترم كما تقول، وحتى إن صدقتك في هذه النقطة هلاً تفسر لي أين ذهبت الأموال الناقصة من ميزانية الشركة؟ لم تنتبه لها هي الأخرى، أليس كذلك؟

- هذا اتهام لا أقبله يا «ماضى» أنا لن أقبل أبداً أن تتحدث معي بهذه الطريقة، عن إذنك.

خرج «فتحي» غاضباً من مكنتي بعد أن ألقى سيجارته نصف المشتعلة على بساط المكتب التي تركت خلفها ثقباً صغيراً ظل في المكان حتى الآن. خرج «فتحي» ولم يعلق على اتهاماتي بالنفي أو الإيجاب فأشعل غضبي أكثر، وفي اليوم التالي لريأت إلى الشركة ولا اليوم الذي يليه، حاولت الاتصال به في منزله فرفض التحدث إلي، فأوصلت له رسالة إن لريأت إلى الشركة سوف اعتبره متنازلاً عن نصيبه بها، ورغم تهديدي له لريأت فنفذت تهديدي، وأجبرته على أن يتنازل ووافق بسهولة دون حتى

أن يتحدث إلي، أنهى كل شئ من خلال المحامي وبسبب صمته هذا تأكد الشك بداخلي، فشعرت أن ما فعلته هو الصواب، يمكن أن تقول إن هذا السبب تافه ومعك كل الحق في ذلك فهذا ما أعتقد أنه أيضاً الآن وبالذات أنه بعد شهر قليلة وصلني خبر وفاة «فتحي» إثر سكتة قلبية، المسكين لم يتحمل كل هذا الضغط - هذا ما تناهى إلى مسامعي بعد ذلك - فهو كان يعمل ليل نهار من أجل المشروع المذكور ولم يكن يأخذ كفايته من النوم أو الراحة ويدخن بشراهة وبعد اتهامي له بالسرقة لم يتحمل الصدمة، ودخل في حالة من الاكتئاب الشديد التي انتهت بوفاة، لم يتوقع ذلك من صديق عمره، قالوا لي إن كل ما كان يتمناه هو أن أعلم ببراءته، وأنه لم يسرق، كانت كبريائه وكرامته يمنعانه من قول هذا الكلام لي فلم يظن للحظة أنه من الممكن أن أتهمه بشئ كهذا، فقد فاق هذا الأمر توقعاته ولم يراوده حتى في أسوأ أحلامه، كانت بنات «فتحي» وجه السعد على الشركة، ولكن كانت الشركة وجه الكآبة والغم عليهما. أشعر بالندم الشديد لما حدث ولا أستطيع مسامحة نفسي على أنني كنت سبب وفاة أعز أصدقائي، بل صديقي الوحيد، فسوف أحمل ذنب موت «فتحي» في رقبتي حتى أموت. عندما أنظر للأمر الآن لا

أصدق أنني فعلت هذا لم كل سوء النية هذا؟ فمن المنطقي أن أحسن النية بفتحي، فهو أثبت لي على مدار السنوات أنه يستحقها، فلماذا بحق السماء أسأت الظن به؟ هذا السؤال يقتلني ولا أعرف إجابته، صديقي أعطاني كل شيء ولم يخل عليّ أبداً، لكن أنا لم أكتف بكل ما أخذته منه فأخذت حياته أيضاً.

قاطعه أحمد قائلاً :

- هذا غريب فعلاً، يبدو لي أنك رجل عاقل، لم أتوقع منك موقفاً كهذا، إذاً ماذا فعلت بعد ذلك؟ هل تعاملت مع أسرته مجدداً؟
أجاب «ماضي» :

- نعم، لقد أثربني هذا الموقف وحرّك مشاعري؛ لذلك حاولت التودد إلى عائلته وإحضار اللعب والهدايا لبناته برغم معاملة زوجته الراقية، فهي سيدة شديدة الاحترام والحق يقال، ولكن نظرات الاتهام واللوم كانت جليّة جلاء الشمس في عينها، ولكنني كنت أتجاهل هذا لشعوري بالذنب وتقديري لمشاعرها، ولكن من طبع الإنسان النسيان كما تعرف، فمع الوقت بدأت أنشغل

ثانية بعلمي، وعدت مثلما كنت تماماً ولكنني حتى أريح ضميري قليلاً كلفت أحد مساعدي أن يهتم بأمورهم إذا احتاجوا شيئاً وكان هذا أقصى صلة بيني وبينهم منذ ذلك الحين.

انتهى «ماضي» من الكلام، فقال «أحمد» :

- لن أعلق على كلامك أو أحكم عليك فأنت تشعر بالذنب الكافي لأفعالك وتدرّك أخطائك، لا أريد أن أزيد عليك ولكنك أدركتها متأخراً جداً بعد فوات الأوان، على كل حال لقد انتهت أسئلتني عند هذا الحد وأصبحت أفهم شخصيتك جيداً سأقوم بتحضير المستحضرات المناسبة لك وأرجو منك أن تأتي بعد غد في الموعد نفسه حتى نقوم بتجربته.

شعر «ماضي» بالسعادة عند سماع ذلك الخبر وشكر «أحمد» على وقته وأكد له أنه سيكون على أتم الاستعداد.

«الحياة مليئة بالاختيارات وكل اختيار نقوم به يلغي في المقابل المئات من الخيارات البديلة التي كان من الممكن أن تأخذك إلى مسارات مختلفة في الحياة، حتى الخيارات البسيطة المتراكمة تؤدي إلى نفس النتيجة وإذا وضعت هذا الكلام في عين الاعتبار عند القيام باختيارك القادم فسوف تجد بعض الصعوبة في القيام به.... فإن اختياراً واحداً يمكن أن يغير حياتك إلى الأبد»

الهمة

استيقظ «ماضي» مبكراً في اليوم التالي، وطلب من خادمه إفطاره الفرنسي المخصوص، ثم قرأ الجريدة كالعادة، فبالرغم من تذكره للكثير من أوجاع ومتاعب الماضي، ولكنه شعر براحة غريبة بعد أن باح بما داخله لشخص آخر، كأنه أعطى «أحمد» جزءاً من الحمل الذي يحمله فأصبح حمله أخف؛ ولهذا السبب هو رائق البال اليوم فقرّر الاتصال بسائقه القديم وطلب منه أن يأتي إليه فهو يريد أن يذهب إلى التسوق. كان قد استغنى عن سائقه منذ مدة وأعطاه إجازة مفتوحة، فهو لم يعد يحب الخروج من المنزل؛ لذلك لم يكن بحاجة إليه ولكن اليوم يريد شراء ملابس جديدة حتى يبدو أنيقاً غداً، وسوف يتجول كثيراً في محلات وسط البلد؛ لذلك فهو بحاجة إلى سائق ولكن عندما طلب من السائق الاتجاه إلى وسط البلد عرض عليه سائقه الذهاب إلى أحد المولات التجارية فيها أغلب

الماركات العالمية، وكلها في مكان واحد مكيف. لقد سمع «ماضي» عن هذه المولات من قبل ولكنه لم يرها قط؛ لذلك وافق على اقتراح سائقه، فهي فرصة له أيضاً حتى يرى هذا التطور في مصر، دخل إلى المول فشعر أنه في أوروبا، معمار راقٍ وعالمي فعلاً، كان يوجد اختراع المولات هذا في البلاد التي زارها، قبل وجوده في مصر بسنوات عديدة، ولكنه لم يفكر يوماً في زيارته، لذلك تجده مندهشاً ومبهوراً بهذا المستوى. نصحه سائقه بدخول أحد المحلات، دخل المحل ووجد بداخله ملابس للنساء والرجال فلم يفهم كنه هذا المحل، منذ متى وملابس النساء والرجال في محل واحد؟! فعلى حد علمه فإن المحلات إما رجالي وإما حريمي كل نوع على حدة باستثناء «عمر افندي» وما شابه؛ فأوضح له السائق أن هذا هو الحال هذه الأيام، وأغلب الماركات العالمية تعرض ملابس للجنسين معاً. سلم أمره وأخذ يتفقد الملابس فوجد بنظراً من الجينز مهترئاً في كثير من الجوانب، ووجد سعره مرتفعاً، ف شعر بالتناقض فهذا البنطال يبدو أنه بنطال عامل مناجم، وقد تبرع به لإحدى المؤسسات الخيرية بعد أن استهلكه استهلاكاً كاملاً، لم يبدُ هذا منطقياً بالنسبة له، فأوضح له السائق مرة أخرى أن

هذه هي الأزياء الرائجة، وأن هذه هي ملابس الأغنياء الآن، لم يستوعب «ماضي» ذلك وشعر أنه قد اتخذ القرار الصحيح عندما قرر اعتزال العالم في السنوات الأخيرة، ثم منذ متى يلبس الأغنياء ملابس الفقراء المستخدمة؟! فعلى حد علمه كان الأغنياء يفضلون الحرير والكشمير والأقمشة باهظة الثمن.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فوجد شيئاً آخر أغرب، وهي عبارة عن سترات مقطعة ومتسخة تبدو كالملابس التي يرتديها النقاش أثناء عمله، أو مثل قطع القماش المستعملة التي تستعملها الأمهات المصريات في الحمامات والمطابخ، حاول تجاهل هذه الأمور الغريبة التي لا تنتهى حتى لا يشتت انتباهه عما جاء من أجله، وبعد تفقد العديد من المحلات وجد شيئاً يصلح بصعوبة بالغة، فشر بسعادة الظفر بعد كل هذا المجهود، ذهب إلى منزله مرهقاً وطلب من السائق أن يأتي غداً؛ لأن لديه مشواراً مهماً فانصاع له السائق، وعندما دخل إلى المنزل طلب من الخادم إعداد الغداء والحمام حتى يستحم ويأكل ثم ينام... حتى يوم غد، فاليوم مرهق وغداً مليء

بالأحداث. استيقظ مبكراً واستعد كالعادة وجاءه سائقه
قبل الموعد بعدة ساعات، فطلب منه مشاركته الإفطار
قبل أن يتحركا.

- ١ -

استقبله «أحمد» بودٍ غير متكلف، مثلما يفعل المدرس مع تلميذه إذا قابله صدفة أثناء الإجازة الصيفية، ثم قال له على الفور :

- يا مرحبا، نورت يا أستاذ «ماضي» لقد قمت بإعداد مستحضرات تناسبك تماماً، وأعتقد أنك ستسعد بها ويمكن أيضاً أن تطالب بها لكي تستخدمها فيما بعد.
ضحك «ماضي» فأكمل «أحمد» :

- أريد فقط في البداية أن أوضح بعض الأشياء، سوف نحتاج حوالي ثلاث ساعات في التحضير، وقد تم إزالة كل شيء يمكن أن يعكس صورتك، لذلك أريدك أن تكون صبوراً معي.

هز «ماضي» رأسه متفهماً فقال «أحمد» في عَجالة :

- حسناً، هيا نبدأ.

استرخى «ماضي» على الكرسي وأرجع رأسه قليلاً إلى الخلف كما طلب منه «أحمد»، وكان أمامه عدد كبير من الأدوات أثارت دهشة «ماضي»، فهو يحاول فهم كيف سيستوعب وجهه كل هذا فبالمنطق المساحة المتاحة في وجهه غير كافية لكل هذه الأشياء، ولكنه تجاهل الأمر، وحاول الاسترخاء. بدأ «أحمد» بالثرثرة مثل أي حلاق مخضرم فقال:

- ألا تتمنى أن يعود بك الزمن فتصلح ما فعلت وتغير مسار حياتك يا «ماضي».

هذه المرة الأولى التي يرفع فيها «أحمد» التكليف تماماً، ولكن هذا شيء ارتاح له «ماضي»، فهو يشعر الآن أنه صديقه ليس مجرد «ميكاب أرتيست» فأجاب بصدق :

- أكيد أتمنى هذا ولكنني أعلم أنه مستحيل.

قال «أحمد» :

- نعم بالفعل ولكنني (أدردش) معك، فأنا أتخيل فقط،

ولكن إذا فرضنا جديلاً أنه قد أتيحت لك الفرصة
لإصلاح شيء واحد أنت نادم عليه فماذا ستختار؟

قال «ماضي» بدون تردد :

- كل شيء بالتأكيد.

ضحك «أحمد» قائلاً :

- لا تكن طماعاً يا ماضي اختر شيئاً واحداً.

فكر «ماضي» للحظات ثم قال :

- كنت سأختار أن أحضر جنازة والدي وأراه للمرة
الأخيرة، فأنا أعلم أن هذا قدره وعُمره وتغيير هذا ليس
بيدي، ولكن كنت أتمنى رؤيته ولولّدقائق وأن أقف
بجانب أمي وأختي فأنا أشعر بالإحراج الشديد لموقفي
المتخاذل تجاههما، وكنت أكره عواقب هذا الموقف،
أكره هذا الحاجز الذي بينته بيدي بيني وبينهما دون
قصد. لم أكن أتحمله، ويؤلمني وجوده بشدة حتى الآن.

صدق «أحمد» على كلامه واستمر في الثرثرة، فسأله عن
انطباعه وهو يضع مستحضرات تجميل وإحساسه العام
بالتجربة وما غيرت فيه.

استمر هذا الوضع ثلاث ساعات كما أوضح «أحمد»
من قبل حتى انتهى أخيراً مما يفعله، . أحضر مرآة لماضي
حتى يرى نتيجة مجهود هذه الساعات الطويلة وكانت
المفاجأة....

«لو أني أعرف أن البحر عميق جداً ما أبهرت
لو أني أعرف خاتمتي ما كنت بدأت»

- ٢ -

نظر «ماضي» في المرأة لشوان، ولكنه لم يستوعب في البداية
فنظر مجدداً، وقال في دهشة :

- ما هذا؟! ما هذا المكياج المتقن؟ أنت حقاً تستحق
لقب «الميكاب أرتيست»، ثم أردف وهو يتحسس
وجهه :

- أنا لا أصدق عيني فوجهي يبدو كأنه عاد العديد
من السنوات إلى الخلف كأنها حقيقة، ليست مجرد
مستحضرات تجميلية.

ضحك «أحمد» ضحكة خبيثة ثم قال له بثقة :

- ولكن هذا حقيقي بالفعل يا «ماضي»

اتسعت عينا «ماضي» على آخرهما وقال :

- م..م..ماذا....أنا....أنا لا أفهم أي شيء.

قال «أحمد» بذات الابتسامة والهدوء :

- هدى من روعك قليلاً ودعني أشرح لك حقيقة هذه التجربة التي أنت على مشارف خوضها الآن.

على مدار الأيام القليلة الماضية كان الدكتور «مصطفى بركات» ومساعدته الدكتور «هيثم عبد الغفور» يتابعان جميع المقابلات من خلف هذه المرآة العاكسة، الموضوعه خلف مكتبي لهذا الغرض بالذات. أنا «أحمد مكاوي» خبير التجميل والعالم الكيميائي، لقد تابع د. «مصطفى» جميع المقابلات باهتمام شديد فهذه تجربة العمر بالنسبة له، ولكي تستطيع فهم ما يحدث بالضبط سوف نحتاج إلى العودة إلى بدايات العام ٢٠١٤ م، أي منذ أكثر من ثلاث سنوات، حينما حكيت عن تفاصيل اختراع ثوري أقوم بالعمل عليه في هذه الأثناء لصديقي د. «مصطفى بركات» بروفسيور علم النفس الاجتماعي بجامعة بنسلفانيا الأمريكية، برغم الفارق الكبير في السن بيننا ولكن عليك معرفة أن التفاهم والوفاق هما أساس هذه الصداقة، والأفكار غير المألوفة التي نشاركها تقوي من صداقتنا أيضاً. الاختراع الذي أتحدث عنه، وكان مازال قيد التنفيذ في هذا الوقت ولم يكتمل بعد عبارة عن مستحضرات تجميل

عُولجت كيميائياً كي تتفاعل مع خلايا جسم الإنسان لتخفي علامات تقدم السن بصفة عامة، ليس فقط تجاعيد الوجه ولكن أيضاً تجاعيد الجسد والخلايا، بمعنى آخر من يضع هذه المستحضرات تعود كل ذرة في جسده لعمر الشباب. كان هذا الكلام ضرباً من الخيال ولا يبدو منطقياً بالنسبة للدكتور «مصطفى»، ولكنه برغم ذلك قام بتشجيعي كما يفعل دوماً كي أستكمل أبحاثي، عسى أن أصل لنتيجة، فعلاً فالدكتور «مصطفى» عقلية متفتحة تقبل الأفكار الغريبة ولا يحب إصدار الأحكام المتسريعة، بل يفضل أن يترىث ويأخذ الوقت الكافي لدراسة أي فكرة مهما كانت قبل الحكم عليها بشكل نهائي، نعود مرة أخرى لبداية عام ٢٠١٤ م، عندما عرضت نتائج أبحاثي الأولية على صديقي «مصطفى» قال لي في ذلك الحين:

- أنت تعلم أن نجاح تركيبة مثل هذه ضرب من الخيال والوصول لها غاية في التعقيد، ولكن أنا أشجعك ومعك بكل قلبي ومجهودي إذا أردت ذلك، ولكن إذا نجحت فأنا أريد استخدامها في شيء أعمق من مجرد مستحضر يعيد الشباب.

قاطعته مستفهماً :

- ما هو هذا الشيء، لقد أثرت انتباهي، أنا معك في كل الأحوال قبل أن تقول، ولكن اشرح لي أرجوك .

ضحك د. مصطفى على صديقه المتسرع دائماً، أعترف أنا «أحمد مكاوي» : أنني أختلف في هذه النقطة عن صديقي الهادئ «مصطفى بركات» فأنا متسرع ومتحمس دائماً، ولقد أفادتني هذه الحماسة في كثير من الأحيان وأضرت بي في أحيان أخرى ولكن وجود مخ عبقرى مثل مخ صديقي «مصطفى» بجانبى جعلني أستفيد من هذه الصفة دائماً الاستفادة القصوى.

أجابني «مصطفى»:

- تريث قليلاً يا صديقي، أعطني أنت الفرصة فقط وسوف أشرح لك كل ما يدور في خلدي.

قاطعته ثانية كعادتي قائلاً :

- وأنا كلي أذان مُصغية أكمل، أرجوك.

وبالفعل قام «مصطفى» بشرح فكرته لي قائلاً :

- إذا استطعنا صُنع مستحضر يعيد الشباب لم لا نقوم بعمل تجربة نفسية على أحد المسنين الذين يعانون من الندم الشديد على بعض الأفعال التي قاموا بها في الماضي، نقوم بوضع هذا المستحضر له وندرس ردود أفعاله ونرى كيف سيتعامل مع فرصته الثانية، هل سيغير الماضي بعد أن عرف نتيجة اختياراته، أم عندما تتاح له الفرصة ويكون عليه الاختيار مرة أخرى سيتردد في تغيير الماضي، ويبقى كما هو؟ وإذا كان جريئاً بدرجة كافية وقرر التغيير بالفعل، فهل هو مستعد لتحمل التضحيات التي سيقدمها مقابل الاختيارات الجديدة؟ وفي النهاية هل سيكون سعيداً بهذه التجربة، أم ستزيد حياته بؤساً؟

قاطعته مرة أخرى - يبدو أنك توقعت هذا - قائلاً بحماس :

- فكرة هائلة يا «مصطفى»، أنا أرغب في تنفيذها من الآن.

ابتسم مصطفى لتسرعي المعتاد وقال :

- هناك معضلة كبيرة إذا افترضنا إمكانية إعادة الشخص لسن الشباب، فكيف سنستطيع إرجاع عالمه كله إلى الخلف؟ لأنه إذا عاد شاباً في الوقت الحاضر لن يكون لديه فرصة لإصلاح أخطاء الماضي، وفي هذا الوقت لا يوجد جدوى حقيقية من التجربة.

غمغمت في أسى وقلت :

- معك حق يا «مصطفى»..... ولكن سنجد لها حلاً بإذن الله.

طمأنني «مصطفى» وقال :

- لا تقلق يا أحمد استمر أنت في أبحاثك ودع هذا الأمر لي سأجد لها مخرجاً بإذن الله.

اتصل «مصطفى» بصديقه وعالم الفيزياء العبقري «هيثم عبد الغفور» وشرح له الموقف عسى أن يجد لديه حلاً، فقبول بحماس شديد من جانب «هيثم»، وطلب منه جميع الأوراق والمعادلات التي اعتمدت عليها أنا في بحثي ووعدته بدراسة الأمر والرد عليه في أقرب وقت، وبالفعل لم يمر الكثير من الوقت حتى توصل «هيثم» لفكرة

مبدئية وبادر بمشاركتها مع «مصطفى» من البداية، فقام بالاتصال به هاتفياً يشرح له الأمر باختصار وقال له :

- دون مقدمات، لقد توصلت لفكرة أرى أنها يمكن أن تساعدنا كثيراً.

رد مصطفى قائلاً :

- بهذه السرعة!! يبدو أنك متحمس حقاً لهذه التجربة وهذا يسعدني كثيراً، هيا قل لي ماهي فكرتك إذا؟
بدأ هيثم في شرح فكرته قائلاً :

- بعد قراءة أبحاث د. «مكاوي» وجدت أنه باستخدام المعادلات التي اعتمد عليها في بحثه يمكننا أن نضيف مادة تصدر ذبذبات فتخلق مجالاً كهرومغناطيسياً يتفاعل مع العالم المحيط بالمتطوع الذي ستقام عليه التجربة فيقع على الكون من حوله التأثير الواقع عليه، مثلاً إذا عاد جسم الشخص المختار ٢٠ عاماً للوراء يعود معه الكون المحيط به بنفس النسبة أي عشرين عاماً إلى الوراء»

قال مصطفى مفكراً :

- هذه الفكرة غريبة، ولم أقرأ أو أسمع عنها في أي بحث علمي.

رد هيثم قائلاً :

- هذه فكرة تعتمد على اتصال بين الطبيعية والعلم مثل الحالة في الأقمار الصناعية باستخدام معادلات نيوتن عن الجاذبية، استطاع الإنسان تطويع الكون في صالحه، فأطلق الأقمار الصناعية الثابتة في الفضاء والتي تدور باستخدام الجاذبية ألا وهي الطبيعة، في هذه الحالة وتطويعها لمساعدة الأقمار الصناعية في الدوران حول الأرض في المدار المحدد لها من قبل الإنسان، أي أننا سوف نطوع العلم ليتماشى مع الطبيعة فنحصل على النتيجة التي نبغيها وكأننا نتحكم في الطبيعة؛ ولذلك إذا استطعنا فهم الطبيعة جيداً يمكننا تطويعها في صالحنا.

سكت «مصطفى» قليلاً ليهضم الكلام ثم قال :

- اعمم.... ولكن يا هيثم هذا مثال بعيد بعض الشيء، فالموضوع يتطلب منك مجهوداً كبيراً؛ لأنك تقريباً ستبدأ من الصفر، ولا يمكنك الاعتماد على نظرية الأقمار الصناعية هذه في أبحاثك؛ لأنها بعيدة بعض الشيء.

رد «هيثم» بنبرة بها الكثير من الإصرار :

- أعلم أن نظرية الأقمار الصناعية بعيدة، ولكن أنا أحاول توضيح الفكرة لك ليس إلا، وبما أن البشر استطاعوا تطوير الطبيعة بهذه الطريقة مرة، فبال تأكيد يمكننا أن نفعلها مجدداً، وبالفعل يوجد الكثير من التطبيقات الأخرى لهذه النظرية، ليس فقط الأقمار الصناعية، فهذا التطبيق أقوله لك على سبيل المثال وليس الحصر، وحتى إن كنت سأبدأ من الصفر فلا يهم يا «مصطفى» مهما تتطلب الأمر من مجهود فأنا مستعد.

رد مصطفى في إعجاب :

- دائماً ما يعجبني إصرارك، أتمنى لك كل التوفيق يا صديقي العزيز.
ثم أنهى المكالمة.

بعد أن أنهى «أحمد» كلامه واتضح الصورة أمام «ماضي» وعرف حقيقة ما يحدث حقاً أردف «أحمد» قائلاً :
- أعتقد أنك الآن استنبطت جزءاً من شخصية د. «هيثم عبد الغفور»، شخص لديه الكثير من الإصرار والصبر

ويمكن أن نقول بأريحية إنه من الأشخاص الذين يصلون لما ييغون بسهولة. وبالدكتور «هيثم» اكتملت الدائرة، وأصبح الكل مشغولاً بالتحضير للحدث الكبير، التجربة النفسية التي ستحدث ثورة في مجال الكيمياء والفيزياء وعلم النفس الاجتماعي، وبعد فترة من المحاولات نجحت تجارب د. «هيثم» وأصبح كل شئ جاهزاً، ينقصنا فقط المتطوع الذي سيقوم بالتجربة، حاولنا أولاً في أمريكا ولكن أغلب الناس في هذه البلد سعداء نوعاً ما، خصوصاً الكبار في السن. الكثير منهم نادمون حقاً ولكنهم يفهمون الحياة أكثر منا كعرب ومصريين فلا يطاردون الأوهام مثلنا حتى يفوتهم قطار العمر، وحتى إن حدث ذلك فالحكومة تهتم بهم بعد التقدم في العمر، وتعطيهم الأولوية في الكثير من الأشياء وتوفر لهم سبل الراحة الممكنة، وهذا بالطبع يهون عليهم الكثير، لذلك لم نجد الشخص الذي نطمح إليه، فقررنا العودة إلى «مصر» والبحث هنا وبالفعل نجحنا كما ترى.

صمت «أحمد» قليلاً حتى يعطي «ماضي» فرصة ليهضم ما قاله للتو ثم أردف قائلاً بعد برهة :

- والآن قد فهمت كل شيء، هل أنت مستعد لمقابلة د. «مصطفى» و د. «هيثم» ؟

كان «ماضي» يستمع لكل هذا الكلام فاغراً فاه رغباً عنه فكل هذه المعلومات مرة واحدة أثقلت عقله، فظل صامتاً لفترة حتى بعد أن انتهى «أحمد» من الكلام، ظل على هذه الحال حتى بدأ «أحمد» بالكلام مجدداً للفت انتباهه، ووقتها قال له «ماضي» دون تركيز شديد:

- نعم... نعم لا مشكلة.

في هذه الأثناء دخل «مصطفى» ومعه «هيثم» إلى الغرفة وعندما رأى «مصطفى» أن «ماضي» يجلس في الركن الأيمن من الغرفة ويبدو عليه التوتر ابتسم له، ولكن «ماضي» لم يبادل الابتسام فما زال سارحاً في أفكاره يحاول استيعاب ما سمعه للتو، فقرر «مصطفى» الكلام لتخفيف حدة الموقف والتوتر العام في الغرفة فقال لماضي مداعباً:

- مبروك يا أستاذ «ماضي» لقد أتتك فرصة لا تأتي لأحد، لو كنت مكانك الآن لرقصت فرحاً.

ثم مد له يده ليصافحه قائلاً:

- أنا «مصطفى بركات»، متخصص في علم النفس الاجتماعي، إن لم تكن خمنت هذا.

مد «ماضي» يده له وهو يحاول السيطرة على مشاعره المتضاربة، وقال في اقتضاب غير مقصود:

- تشرفت بمعرفتك.

بدأ «مصطفى» بالحديث معه في مواضيع أخرى لكسر الثلج كما يقول الأمريكيان، ولكي يخرجهم من دهشته سأله عن حياته بصفة عامة، وكيف يقضى يومه، ثم بدأ بسؤاله عن عمله كمهندس وعن شركته التي تركها الآن .. مع الوقت كانت حالة «ماضي» تتحسن خاصة عندما بدأ «مصطفى» بالتحدث عن عمله كمهندس، شعر «ماضي» براحة نسبية وأعجب بشخصية «مصطفى» الودود فسأله مستفسراً:

- اعذر جهلي يا دكتور «مصطفى» ولكن ما هو «علم النفس الاجتماعي» هذا فقد سمعت عن «علم النفس» وعن «علم الاجتماع» ولكن هذا العلم لم أسمع عنه قط.

ابتسم «مصطفى» وبدأ يشرح له :

- لست وحدك، فمن الطبيعي ألا تسمع عنه فهو بعيد عن مجال تخصصك، ولكن دعني أشرح لك ما هو،

كما يعرف الكثير من الناس فإن علم النفس هو علم يسعى لدراسة سلوك الكائنات الحية وخصوصاً الإنسان وهذا من أجل فهم هذا السلوك وإيجاد طرق مختلفة للتحكم به، أما علم الاجتماع فهو علم يهتم بسلوكنا ككائنات اجتماعية أو دراسة تصرفات مجموعة من البشر ككتلة واحدة، ويهتم أيضاً بالتاريخ الاجتماعي للإنسان.

نأتي إلى موضوعنا ألا وهو علم النفس الاجتماعي يمكننا القول إنه : علم يجمع بين العلمين السابقين ويعتبر فرعاً من فروع علم النفس، فهو يهدف إلى دراسة سلوك الإنسان كفرد تجاه أفراد آخرين أو تجاه أشياء، بمعنى أصح هو علم يدرس ردود فعل الإنسان كفرد تجاه العوامل الخارجية أياً كانت هذه العوامل؛ من أفراد، حيوانات أو أشياء مادية ويطلق على هذا التصرف: «التفاعل الاجتماعي»، والهدف الأساسي من هذا العلم هو خلق مجتمع أفضل قائم على فهم سلوك الفرد والجماعة.

- لقد فهمت نوعاً ما، ولكن يبدو أن الموضوع أكثر تعقيداً من فهمي المحدود.

- لا بالعكس دعني أعطيك مثالا يُسهل عليك الأمر قليلاً، هناك تجربة شهيرة قام بها الباحثون في هذا

المجال، أطلقوا عليها «تجربة سجن ستانفورد» أو **"The Stanford prison experiment"**. كانت تهدف هذه التجربة الشهيرة لفهم الصراعات التي تحدث في السجون، وماذا يحدث إذا وضعنا أشخاصاً معروفاً عنهم الطيبة وحسن السلوك في بيئة شريرة سلبية، هل ستطغى القيم والأخلاق وتنتصر أم سيتأثرون بهذه البيئة الخارجية؛ لذلك قام الباحثون باختيار أربعة وعشرين من طلاب الجامعة يمتازون بحسن الخلق والاستقرار النفسي، وتم تقسيمهم إلى مجموعتين، اثنا عشر فرداً منهم يمثلون المساجين والآخرين يمثلون الحراس، وتم وضعهم جميعاً في قبة جامعة ستانفورد الذي تم تجهيزه ليبدو مثل السجون الحقيقية بالضبط، عقد مدير السجن أو الباحث الذي يدعى «زيمباردو» اجتماعاً مع فريق الحراس وأعطاهم كل الصلاحيات لفرض سيطرتهم على السجناء ما عدا استخدام العنف الجسدي ولكن أي شيء آخر متاح، مثل إخافتهم، قمعهم وما إلى ذلك، وأكد لهم أنهم يملكون جميع الصلاحيات والسلطة، وأن الآخرين لا يملكون شيئاً، كما أعطاهم ملابس مثل ملابس الحراس الحقيقيين ونظارات شمس عاكسة حتى لا يستطيع السجناء رؤية أعينهم، وبالفعل بدأ الحراس

في أول يوم استغلال هذه الصلاحيات الممنوحة لهم، فتم تجريد السجناء من ملابسهم ونعتهم بأقبح الألفاظ ولكن شيئاً لم يحدث، فقد أطاعهم السجناء بسلاسة، فلم يسعد «زيمباردو» بهذا، وشعر أنها ستكون تجربة طويلة ومملة، ولكن في اليوم الثاني قرر السجناء التمرد، وشعر الحراس أن الوضع يخرج عن سيطرتهم، غضب الحراس ومارسوا العديد من المضايقات تجاه المساجين مثل: إيقاظهم في منتصف الليل أو إجبارهم على تنظيف المرحاض بأيديهم، أشياء لم يتخيلوا أنه من الممكن صدورها منهم في يوم من أيام حياتهم العادية، ومع الوقت بدأ الوضع في التدهور وانهار أحد السجناء، وبدأ بالصراخ الشديد وادّعى الجنون حتى يدعوهم يخرج، ولكنهم طالبوه بغرامة كي يدعوهم يذهب قبل انتهاء المدة المتفق عليها فعاد إلى زملائه وأقنعهم أن «زيمباردو» لن يدعوهم يخرجون من هنا إن أرادوا هم ذلك، بالرغم من أن «زيمباردو» لم يذكر شيئاً كهذا قط، ولكن هذا المسجون أراد إثارة البلبلة بين السجناء، ومن هنا كانت بداية السجن الحقيقي.. بدأ السجناء في الاستسلام لهيمنة الحراس حتى عندما قام شخص آخر برفض هذا الظلم اعتبروه مثيراً للمتاعب

ولم يتعاطفوا معه على الإطلاق، تدهورت الأوضاع سريعاً وازداد الحراس توحشاً مع كل لحظة يشعرون فيها بالهيمنة والسيطرة، فقرر «زيمبادرو» إنهاء التجربة قبل الوقت المحدد لها حتى ينهي هذه المهزلة.

- يبدو أنه علم مثير للاهتمام.

- جداً، ودعني أقول لك إن دراسته ممتعة للغاية ولكنها خطيرة.

بعد هذه الدردشة المثيرة تحسنت حالة «ماضي»، فقال له «مصطفى» بلهجة عملية:

- حسناً يا سيد ماضي، أرى أنك أفضل حالاً الآن .. دعنا نتحدث في تفاصيل تجربتنا نحن.

صمت لوهلة ثم أردف :

- أولاً لقد عدت إلى سن الشباب كما تعرف وسوف يتغير الكون كله معك كما أوضح لك «أحمد» من قبل، ولكن يجب أن أطلعك على بعض الأمور، أولاً أمامك فقط أربعة وعشرون ساعة، لقد قمنا بتجربة المنتج كما قلنا لك سابقاً وتحكمنا أيضاً بإزالته بأنفسنا ولكن

أغفل «أحمد» أن يخبرك أنه بأي حال من الأحوال لن يستمر أكثر من يوم واحد، أي أربعة وعشرين ساعة أو أقل، حاولنا إطالة المدة أكثر من مرة وللأسف هذا ما استطعنا التوصل إليه، ولكن الجانب المشرق أننا استطعنا التحكم في العمر المراد العودة إليه، فيمكن أن نجعلك في أي عمر تريده؛ لذلك أعدناك إلى عمر الثلاثة والثلاثين عاماً، ثانياً أود.....

قاطعه «ماضي» وقال في إحباط :

- ولكنني لا أريد هذا العمر.

تعجب «مصطفى» وقال له :

- ولكن هذا ما قلته لـ «أحمد» عندما كان يضع لك المكياج، ألم تقل له إنك تتمنى حضور جنازة والدك !!

- أنا أعرف ما قلت ولكنني كنت أقوله من باب التمني لريأت ببالي أن هذه الأمنية ممكنة التحقيق لذلك كنت أحلم، ولكن بما أن الأمر بيدي الآن فأنا أريد عمراً آخر.. أريد أن أعود لعمر الثمانية والعشرين.

قال له مصطفى :

- آه، فهمت تريد أن تكون أكثر شباباً ولكن عمر الثلاثة والثلاثين هو عمر أهل الجنة؛ أي أكثر الأعمار شباباً وحيوية، ثم أردف مازحاً:

- يالك من طماع!!

رد ماضي نافياً:

- لا، ليس طمعاً على الإطلاق ولكن لدي أسباب أخرى أريد أن أحتفظ بها لنفسى.

- حسناً، من الجيد ذكر هذه النقطة .. كنت أوضح لك بعض الشروط سابقاً، وثاني شرط أريد أن أوضحه لك هو أنه لا توجد أسرار، سنضع لك كاميرا وميكروفون حتى نستطيع متابعة يومك ولكن ستكون رؤيتنا للموقف محدودة، لذلك نريد منك أن تأتي إلينا هنا بعد انتهاء التجربة لتحكي لنا تفاصيل يومك كله حتى تكتمل الصورة لدينا، وثالثاً - وهذا الأهم - لا يمكنك إزالة المكياج في أي وقت، إما أن نزيله نحن وإما أن يذهب المفعول من تلقاء نفسه حتى لا تحدث أية مضاعفات غير محسوبة من الإزالة الخاطئة، فأنت تعلم أنه منتج جديد ولا يزال قيد الاختبار؛ لذلك لا نعرف كل الآثار الجانبية الناتجة عن استخدامه

لذلك توخ الحذر من فضلك والتزم بالتعليمات.
أخذ نفساً ثم أكمل كلامه :

- وبالنسبة لسن الثمانية والعشرين، سوف يعمل «أحمد» على تحقيق ذلك دون أسئلة الآن احتراماً لرغباتك، ولكن أتمنى أن تكون مستعداً للبوح بمكنونات نفسك عندما نحتاج لذلك، أتمنى لك كل التوفيق وتذكر أن أمامك يوماً واحداً فقط لتغير حياتك بالكامل .. يجب أن تدرك أهمية ذلك وتفكر جيداً قبل أن تأخذ أي خطوة، فكل تغيير بسيط تقوم به في الماضي سيكون له أثر كبير في المستقبل.

هز «ماضي» رأسه متفهماً وغمغم قائلاً:

- نعم، نعم معك حق .

ثم وعده أن يضع كلامه في الاعتبار .. شكره د.
«مصطفى» لتعاونيه، ثم ترك الغرفة وهو يدعو له بالتوفيق.

بعد خروج « د. مصطفى » طلب «أحمد» من «ماضي» الجلوس لتلبية رغبته وإجراء التعديلات المطلوبة، بعد الانتهاء كان «أحمد» يشعر بالإرهاك، فهو يعمل لأكثر من

أربع ساعات وبتركز شديد، وفي الأوقات الطبيعية كان «ماضي» سيشعر بالتعب أيضاً، ولكن اليوم مختلف كما تعرف، فهو يزداد حماسة مع الوقت. أعطاه «أحمد» قلادة غريبة في كيس بلاستيك شفاف وطلب منه أن يضعها حول رقبته فور خروجه من المبنى، سأله «ماضي» عن كُنه هذه القلادة وعن فائدتها، فأجابته «أحمد» :

- هذا ما استطاع د. «هيثم» الوصول إليه، حاولنا في البداية أن نضع مادة في المكياج نفسه تُعيد الزمن، ولكننا فشلنا، وبعد تفكير وجدنا أنه من الأفضل التحكم في كل شئ على حدة، وإلا فبمجرد وضعي للمسات الأخيرة من المكياج سوف أختفي تلقائياً دون إرادة مني، فصنع د. «هيثم» هذه القلادة لتؤدي الغرض وهي لا تعمل إلا بملامسة الجسد لذلك لا تخرجها إلا بعد أن تخرج من البناية . أوضح «ماضي» تفهمه، فابتسم له «أحمد» ودعاه بالتوفيق وتمنى له حياة أفضل.

هبط «ماضي» الدرج ولم يُرد استخدام المصعد، أراد أن يختبر جسده الجديد، فلم يخله كما كان يفعل دائماً، كانت دقات قلبه تزداد مع كل درجة يصعدُها، وكان يضغط على القلادة بكلتا يديه دون قصد، وصل لباب البناية ووقف قليلاً

يفكر، تنهد وغمغم «بسم الله الرحمن الرحيم»، ثم أخرج
القلادة من الكيس البلاستيكي وقام بارتدائها حول رقبته
وهو ينظر إلى الأرض، وفجأة بدأ الكون يتغير من حوله.

— ٣ —

نظر خلفه فلم يجد البناية من الأساس، ففهم لماذا
أصر د. «أحمد» على عدم ارتدائه القلادة وهو بداخلها،
أخذ نفساً عميقاً مفعماً برائحة الذكريات وابتسم .. هو
سعيد جداً الآن، لم يتوقع قط أن يُقدم على هذه المغامرة
العجيبة، كانت أقصى طموحاته الخروج من المنزل لأي
هدف والسلام، وأن يلتقي ببعض الأشخاص، وأن يكرمه
الله أكثر فيتحدث معهم قليلاً، ولكن هذا ... ما يحدث الآن
يفوق خياله وكل توقعاته، الحماس يغلبه فلا يعرف من أين
يبدأ، منذ أن أخبره د. «أحمد» بحقيقة التجربة وهو يُعد
خطة بما سوف يفعله بالحرف، ولكن الآن بعد أن أصبح كل
شئ حقيقة فعلاً، بدأ يشعر بالتخبط ونسي كل شئ خطط
له، كأنه لم يخطط له من الأساس، قرر أن يتمشى قليلاً
حتى يُهدئ من روعه ويرتب أفكاره من جديد، ولكن
ما يراه حوله لا يساعده على التركيز، كلما حاول ترتيب

أفكاره، عيناه الجائعة لا تشبع أبداً فيتشتت انتباهه بما يراه. بعد أكثر من نصف ساعة بدأ التحكم في انبهاره وحاول استعادة عمليته المعهودة حتى ينفذ ما جاء من أجله، فهو لا يملك الكثير من الوقت. المشكلة أن المسافة طويلة، فبحث عن محفظته وفتحها فوجد ما كان يأمل وجوده بداخلها.. أمواله عادت هي الأخرى للعصر نفسه، سعد جداً لذلك، فسوف يسهل هذا عليه الكثير، قرر في هذه اللحظة البحث عن سيارة أجرة كي تقله للمكان الذي يريده، ولكنه لم يجد حوله سيارات أجرة، حيث كانت هذه المنطقة - التي تقع بحي مصر الجديدة - نائية نوعاً ما، لم يكن حوله سوى القليل من البنايات السكنية المتباعدة التي يراها على مرمى البصر، وكان المكان الذي يقف فيه مجرد أرض ترابية، وكان من خلفه مسجد تحت الإنشاء، وُضع أساسه وتم صب الخرسانات المسلحة للأسطح والأعمدة، التي تم دعمها بالشدات الخشبية، فبدأت ملامح المسجد تظهر للعيان، هذا المسجد الذي سيصبح أحد أشهر مساجد هذه المنطقة فيما بعد، بجانبه بناية قبيحة المنظر مازالت في مرحلة البناء أيضاً، ماضي يكره الطابع المعماري الذي بدأ مع سبعينيات هذا القرن، فالتصميمات لم يبذل فيها أي مجهود فني، فتشعر أنها ليست

بنايات سكنية، بل علب كرتونية لحفظ الأحذية، متراسة بجانب بعضها البعض في إهمال، وازدهر هذا النوع القمئ في ثمانينيات القرن العشرين، حتى أنهم أطلقوا عليها لفظ «البلوكات» وهو تشويه لكلمة “blocks” الإنجليزية والتي كانت تعني في الماضي (قوالب)، أو القطع الصلبة من المواد كقطعة ضخمة من الخشب أو الصخر، ولكنها الآن أصبحت كناية عن مجموعة من المباني السكنية، أي أنهم يعترفون بجرمهم على الملاءمير مستريح، حمداً لله على أن هذه البناية مازالت قيد الإنشاء، فهو لا يريد لأي شئ أن يعكس صفو اليوم، ولكن المشكلة الآن أن المنطقة نائية؛ لذلك وجد سيارة الأجرة بصعوبة بالغة. صعد إلى السيارة وأمل على السائق العنوان، فرد عليه السائق بأدب واتجه للمكان المقصود، انشرح قلب «ماضي» فهو يفتقد هذه المعاملة الكريمة، ذات مرة تعطلت سيارته واضطر إلى أن يلجأ إلى سيارة أجرة وكانت المأساة، فتوقيف موكب لرئيس الجمهورية والحديث معه أسهل من إيقاف سيارة أجرة والتحدث مع سائقها، كان مذهولاً من الموقف، أكثر من عشر سيارات أجرة مرت أمامه في ذلك اليوم، كل سائق يقف لشوانٍ معدودة ويسأل عن المكان قبل أن يدعه يركب، ليس ذلك فقط، فهو لم يكن يستطيع إكمال الجملة

بالعنوان المقصود حتى ينظروا إليه بازدراء ثم يرحلوا، لا يعلم لم كل هذه العجرفة المنتشرة بين سائقي الأجرة، حتى السائق الوحيد الذي تكرم ووافق أن يقله طلب ضعف الأجرة، وعندما اعترض «ماضي» على استحياء- فكان نقاشاً أكثر منه اعتراضاً- هده السائق بأن يلقيه خارج السيارة فانصاع «ماضي» لطلبه دون المزيد من المناقشة؛ لذلك هو يفقد هذا التعامل المهذب فحاول الاستمتاع به قدر المستطاع. للأسف نحن لا نقدر قيمة الأشياء البسيطة الجميلة في حياتنا إلا عندما نفقدها أو نرى وجهها السئ، كم مرة تمنينا شيئاً وبعد أن حصلنا عليه بدأنا نعتاده فلم يعد بذات الأهمية، نسينا الليالي التي كافحنا فيها للحصول عليه، تناسينا إحساس اليأس عندما كان الحلم صعب المنال، وبعد أن أصبح بين أيدينا قررنا البحث عن حلم آخر، ولم نعد نغير الحلم القديم اهتماماً. كان «ماضي» غارقاً في أفكاره فلم يسمع السائق الذي بدأ بجذب أطراف الحديث معه، فسائق التاكسي يحب الثثرة كما نعلم، يبدو أنها عادة متوارثة من أيام قدمائنا المصريين. اعتذر «ماضي» للسائق لعدم انتباهه فقال السائق :

- ولا يهمك يا أستاذ، ماذا أتى بك إلى هذه المنطقة النائية؟

من حسن حظك أنني كنت أنقل بعض الأشخاص
هنا، لولا هذا لظللت في مكانك طوال اليوم.

رد ماضي :

- حمداً لله أنني وجدتك إذاً.

- ولكن ما هذه القلادة الغريبة التي تضعها حول رقبتك،
لم أر مثلاً من قبل؟!

- هذه ... هدية من والدي لذلك أحب ارتداؤها دائماً.

- آه، فهمت الله يبارك لك فيها، هل مازالت على قيد
الحياة؟

- آاه... نعم

- ربنا يخليها لك وترى أولادك، عندما رأيت هذه القلادة
الغريبة ظننت أنك من شباب هذه الأيام لا تؤاخذني
لذلك، لكن بما أنها من الوالدة فيجب عليك ارتداؤها
فعلاً، فالجنة تحت أقدام الأمهات كما تعرف.

- نعم، معك حق.

بالرغم من إجابات «ماضي» المختصرة لكن السائق لم
يتوقف عن الكلام فأكمل قائلاً :

- شباب هذه الأيام عجيب جداً يا أستاذ، صحيح ما هي مهنتك ؟

- أنا أعمل مهندساً ميكانيكاً.

- مهندس !! أهلاً وسهلاً يا باشمهندس نورت التاكسي والله.

- بنورك، شكرًا لك.

أكمل السائق وكأنه لم يسمعه :

- كما كنت أقول لك يا باشمهندس شباب هذه الأيام قمة في الغرابة، ليسوا مثل حضرتك هكذا محترمين وأولاد ناس راقية، يرتدون هذه البناتيل الواسعة عجيبة المنظر فوقها القمصان الضيقة جداً ذات الألوان الكثيرة التي تتعب الناظرين، تشعر أن القميص سوف يتمزق إذا أكل أحدهم وامتلاأت معدته، هذا زمن ما يعلم به غير ربنا، يبدو أننا في نهاية العالم يا باشمهندس أليس كذلك؟

ضحك «ماضي» بداخله .. هذا الرجل يتحدث بحماس شديد ويصدق كل كلمة يقولها حتى أن «ماضي» يتخيله إذا رأى شباب القرن الحادي والعشرين إما سيُجن ويذهب إلى مستشفى الأمراض العقلية وإما سيصاب بانهايار عصبي حاد.

- معك حق، فهذا زمن لا يعلم كنهه إلا الله فعلاً!

قال «ماضي» جملته الأخيرة ثم سبح في نهر أفكاره من جديد، حاول السائق إخباره بوصولهم للمكان المنشود، ولكن لم ينتبه له «ماضي» حتى بدأ السائق في الصياح، سمعه واعتذر له على عدم تركيزه، ثم أعطاه الأجرة المذكورة في قراءة العداد وترجل من السيارة بهدوء، أخذ نفساً عميقاً ثم دخل إلى المكان الذي جاء من أجله، كان المكان المقصود عبارة عن مسمط بجانب بيته القديم.. منذ أن ترجل من التاكسي وهو يشم رائحة الأكل الزكية التي تدغدغ مشاعره بالحنين ومعدته بالجوع، أول شئ وقعت عيناه عليه منذ دخوله هذه المنطقة هي بناية منزله القديم التي تقع في نهاية الشارع الذي يقف على أوله الآن، نظر إلى البيت طويلاً وتنهَّد ثم سقطت منه دمعة رغماً عنه وهو يتسم للبيت كأن البيت ينظر إليه هو أيضاً بذات الحنين ويشعر بأحاسيسه، لم يتخيل «ماضي» أنه يفقد هذا البيت بهذه الشدة حينما رآه حتى غرغرت عيناه بالدموع وتمنى أن يحتضنه بين ضلوعه.. لم يكن يتخيل أن هذا الكم من المشاعر محفور في أعماقه و ينتظر الوقت المناسب للخروج، بالنسبة لأي شخص آخر هذه بناية عادية مثل أي بناية

أخرى يمكن أن تكون أقل من العادية بمراحل كثيرة ولكن بالنسبة لماضي هي بناية أساسها براءته، أعمدتها الأمل وسقفها طموحه الذي كان ينمو بداخله مع نمو خلايا جسده، وهذا الشارع الذي كان يحفظه عن ظهر قلب يأخذه ذهاباً وإياباً كل يوم أكثر من مرة.. مشى قليلاً في الشارع والذكريات الدافئة تتوافد في عقله.. ملاً صدره بهواء الشارع المفعم بالذكريات، ولكن معدته نبهته أنها لا تزال فارغة فقرر الذهاب إلى المسقط الذي طالما ذهب إليه بعد عودته من العمل أو أيام الإجازات فقد كان قريباً وأكله لذيذ جداً أي متكامل الأوصاف، دخل المطعم وهو يتسّم للجالسين فهو يعرف الكثير منهم حتى بادره أحدهم قائلاً:

- لقد تأخرت كثيراً يا باشمهندس «ماضي» لم كل هذا التأخير!؟

- معذرة يا حاج لقد كان الطريق طويلاً..... طويلاً جداً.

بادره شخص آخر بالكلام يبدو أنه صاحب المحل أو أحد العاملين به فقال:

- صحيح يا باشمهندس لم أرك منذ مدة طويلة، لم نعتد منك طول الغياب.

- اعذرني يا معلم أشغال والله.

جلس «ماضي» على طاولته المفضلة وهو يثرثر ويضحك مع من حوله، حتى بادره الحاج بالكلام مرة أخرى:

- اعذرني يا بني ولكن ما هذه القلادة الغريبة التي ترتديها على صدرك؟

- آه.. لا.. هذه لا شئ، قلادة يجب أن ترتديها في المصنع لـ..
لتمييز بين العمال والمهندسين، فكما تعلم العدد كبير ولا يعرف الجميع بعضهم البعض.

- آه فهمت، ولكن تبدو غريبة جداً، أنتم المهندسين لكم أشياء مختلفة عن باقي البشر، ربنا يكرمك ويفتحها في وجهك.

- الله يكرمك يا حاج هذا من ذوقك.

هذا ما قاله «ماضي» للرجل ولكن بداخله قال:

- الله يخرب بيتك يا أحمد، العالم ملئ بالقلاذات المختلفة ولم تجد سوى هذه القلادة الضخمة التي تجعلني أبدو مثل مطربي الراب الأمريكيين لتعطيها لي!!

ولكن حمداً لله أنه فصل الخريف، فقرر «ماضي» أن يداريها بين ثيابه حتى لا تثير المزيد من المتاعب. بعد فترة نسي أمرها تماماً وبدأ الاستمتاع بوقته من جديد، هذا المكان من الأماكن القليلة التي يكون فيها «ماضي» على سجيته، فصاحب المسمط صديق والده ويعتبر «ماضي» ابناً له؛ لذلك يوده «ماضي» دائماً حتى لو لم يكن ذاهباً لتناول الطعام. أنزل النادل الأطباق على الطاولة دون أن يطلب «ماضي» أي شئ، فهو يعرف ما يحبه دون الحاجة لسؤاله، أكل «ماضي» باستمتاع وشهية مفتوحة حتى أنهى كل ما وضع أمامه من طعام.

كان «أحمد» ومن معه في المكتب يتابعون كل هذه الأحداث في صمت واهتمام شديدين من خلال الشاشة الموجودة أمامهم، فجأة كسر «أحمد» الصمت وقال لزملائه:

- ما هذا؟! أعطيناه أغلى شئ يمكن أن يحصل عليه في حياته فيذهب ليأكل في مسمط!! ما هذا التهريج؟ يا له من شخص ضيق الأفق!!

رد عليه «مصطفى» مهدئاً من روعه:

- اهدأ قليلاً يا «أحمد» لا تكن متسرعاً ودعنا لا نحكم مبكراً.

قال «هيثم» مازحاً:

- لا أستطيع رؤيته وهو يأكل جيداً، ولكن مما أسمعه من صوت مضغ وبلع يمكنني أن أجزم أنه خاض هذه التجربة ليأكل فقط.

رد مصطفى:

- دعه يستمتع بوجبه، من المؤكد أنه يفتقد هذه الأشياء وهذا شعور إنساني طبيعي ومتوقع، دعونا نرى ماذا سيحدث لاحقاً، فالأحداث الحقيقية لم تبدأ بعد.

وبالفعل كان «ماضي» متشوقاً لهذا النوع من الأكل، فلقد مُنع من تناوله منذ زمن بعيد. بعد برهة من الزمن والأكل و المزاح مع من حوله، قرر «ماضي» أخيراً أن يذهب إلى مكان آخر، أوقف سيارة أجرة مرة أخرى، فوقف السائق بكل احترام كالمرّة السابقة دون السؤال عن المكان، فأخبره «ماضي» بالمكان المقصود وتمنى من قلبه ألا يكون هذا السائق ثرثاراً مثل الذي يسبقه، وحمداً لله كان عدد الركاب كبيراً فلم يبدأ السائق الكلام مع أي منهم ومشى في طريقه في صمت.

قال «أحمد» مجدداً وهو يتابع:

- يبدو أنه لم يستطع العثور على سيارة أجرة فارغة في هذه المنطقة المزدحمة، فركب واحدة مليئة بالركاب، أنا لا أسمع أي شيء من هذه الأصوات المتداخلة ولا أستطيع أن أرى جيداً، من منكم اشترى هذه الكاميرا وهذا الميكروفون؟

رد هيثم أنه هو من فعل، فأردف «أحمد»:

- ألم تجد شيئاً أسوأ من هذا؟ فهما لا يعملان تقريباً.

قال هيثم مبرراً:

- لقد أكد البائع لي أنهما من أفضل الأنواع الموجودة في السوق حالياً وأعلاها كفاءة.

قال د. مصطفى ضاحكاً:

- من الواضح أنك لم تأت إلى مصر منذ زمن طويل يا «هيثم»، كان يجب أن تعرف أنه نوع رديء ولا تشتريه، أعتقد أنه كان يجب عليك الاستعانة بأحد أقاربك المقيمين هنا لينجز هذه المهمة.

في هذه الأثناء كان «ماضي» قد وصل لوجهته المقصودة، فنظر أحمد إلى الشاشة أمامه وقد استشاط غضباً ثم قال:

- هذا الرجل سوف يكون السبب الرئيسي في إصابتي بأزمة قلبية، يضيع وقته الثمين في الأكل والآن يذهب إلى الملاهي!!! أعصابي لا تحتمل أكثر من ذلك.

صمت قليلاً ليتمالك أعصابه ولكن محاولته باءت بالفشل فصاح مجدداً:

- هل كان هذا الرجل يخدعنا؟ أمضيت معه أسبوعاً كاملاً وهو يتحدث عن ندمه وحسرتة على ما ضاع من عمره هباءً، والآن عندما أتت له الفرصة لإصلاح كل ما فعل على طبق من ذهب يضيعها هي الأخرى؟! ثم من يذهب إلى الملاهي في هذه السن أصلاً، فهو يبلغ الآن الثامنة والعشرين من العمر ليس الثمانى سنوات، الحق أقول إن لم أمت بسبب هذا الرجل فسوف أصاب بالجنون قبل انتهاء هذه التجربة.

لم يقتصر التوتر على «أحمد» فقد كان «هيثم» أيضاً متوتراً ويبدو عليه الضيق، فحاول «مصطفى» تهدئة هذه الأجواء المشحونة، ولكنه كان مؤيداً لكلام «أحمد» هذه المرة، فهو مندهش من تصرفات «ماضي» الغريبة، شخص آخر مكانه

أو شخص يشعر بما يشعر به كان سيتصرف بشكل مختلف تماماً، ولكنه حتى الآن يثبت نظرية أن الشخص لن يتغير حتى إذا أُعطيَ فرصة ثانية، وفي الغالب سيرتكب نفس الأخطاء ويقوم بنفس الأفعال عندما يخوض الموقف نفسه بذات الظروف، وهذا مثير للاهتمام حقاً، على كل حال كما نعرف عن «مصطفى» أنه هادئ الطباع غير متسرع في أحكامه؛ لذلك قرر أن يراقب «ماضي» في صمت ويدع الأحكام والتحليلات جانباً حتى انتهاء التجربة.

كان الدخول لعالم الملاهي مغامرة في حد ذاته بالنسبة لشخص مثل «ماضي»، فهو لا يتذكر متى كانت آخر مرة دخل فيها مثل هذا المكان، إنه لا يتذكر أصلاً إذا كان قد ذهب لمكان مثل هذا من قبل، شعر أنه طفل صغير متحمس ومنبهر بكل ما حوله وكانت سعادة غريبة تنمو بداخله يبدو أن هذا المكان محاط بهالة إيجابية تصيب الأشخاص المتواجدين فيه، كان المكان مزدحماً رغم أن الوقت عمل، ولكنه وجد الكثير من الكبار والصغار بمظهر واحد، وهو المرح، الابتسامة التي يراها على وجوههم دفعته للابتسام هو الآخر فظلت

الابتسامة على وجهه طوال فترة تواجده في هذا المكان، رأى أمامه لعبة تبدو صعبة قليلاً فأراد أن يختبر جسده الجديد بركوبها، انتابه شعور غريب جداً، كان مثل الرجل الذي اشترى سيارة سباق جديدة بعدما كان يملك سيارة قديمة لا تتعدى سرعتها الـ ٤٠ كيلو/ الساعة. في كل لحظة يشعر فيها أن جسده سيخونه يخيب ظنه ويصمد حتى إنه بعد اللعب والمرح لأكثر من ثلاث ساعات لم يشعر بالتعب بالعكس كان بكامل نشاطه، لكنه قرر الذهاب إلى مكان آخر فوقته محدود ولديه الكثير ليفعله.

قال «أحمد»:

- أتمنى ألا يصيبني بجلطة قلبية هذه المرة.

رد عليه د. مصطفى:

- هدى من روعك يا أحمد، يبدو أنه ذهب للمصنع الذي كان يعمل به وهذا شئ مبشر.

كان «مصطفى» محقاً، لقد ذهب «ماضي» إلى المصنع القديم بالفعل ويبدو عليه التوتر، كان هذا الوقت قبل تعيينه كنائب للمدير بأسابيع قليلة، لذلك ذهب إلى غرفة مكتبه القديم في قسم «الهندسة الميكانيكية». عندما دخل إلى الغرفة رآته

«سما»، ابتسمت له ثم نظرت للأرض فأشرقت أساريره
بهذه الابتسامة التي تداعب مشاعره دائماً، كم كان يفتقدها!

«الموج الأزرق في عينيك يناديني نحو الأعماق
وأنا ما عندي تجربة في الحب ولا عندي زورق»

بدأت «سما» بالكلام فقالت له:

- لقد جئت متأخراً جداً، لقد شارف اليوم على الانتهاء،
لقد ظننتك لن تأتي اليوم.
قال وهو مازال ينظر لها ويبتسم:

- كانت لدي بعض الأمور التي أريد الانتهاء منها أولاً.

- أتمنى أن تكون قد أنجزت وأنهيت ما كنت تريد، ولكن
ما هذا الشيء العجيب الذي يظهر تحت قميصك؟ هذه
قلادة أليس كذلك؟

-مم..ماذا..نع..نعم إنها قلادة فعلاً.

ثم غمغم قائلاً بصوت خفيض:

- الله يخرب بيتك يا دكتور «أحمد».

لم تسمع «سما» آخر جملة فقالت:

- ماذا قلت؟

- لا شئ .. لا شئ، دعك من موضوع القلادة وقولي لي

هل جاء «فتحي» اليوم؟

- لا لمرآت بعد، ربما تكون لديه بعض المهام مثلك.

فهم «ماضي» ما تقصد فضحك ولم يعلق، ثم قال

متظاهراً بالبراءة:

- ما رأيك أن نذهب سوياً لنبحث عنه عسى أن يكون

بالداخل يتفقد إحدى الماكينات.

وافقته «سما» الرأي وذهبت معه إلى داخل المصنع،

حيث يوجد الكثير من العمال الذين يعملون بجد

ونشاط، ما لبث أحد العمال أن رأى «ماضي»، وكان يدعى

«صالح»، حتى أسرع إليه ليلقي عليه التحية، كان «صالح»

رجلاً كبيراً نسبياً، تعدى عمره الخمسين عاماً حتى

أصبح الشعر الأبيض على رأسه أكثر بكثير من الشعر

الأسود، وبالرغم من أنه في الخمسينات من العمر إلا أنه

يبدو أكبر سنّاً بكثير بسبب الإرهاق الظاهر على وجهه،

لديه عين لامعة توحى بالذكاء، ووجهه يوحى بطيبة لا تخطئها العين. لم ينتبه «ماضي» إلى أن عم «صالح» يحاول الوصول إليه فحاول عم «صالح» لفت انتباهه قائلاً:

- يا باشمهندس... يا باشمهندس «ماضي».

انتبه «ماضي» وما إن وقعت عيناه عليه حتى ابتسم له ابتسامة صادقة قائلاً:

- أهلاً يا عم «صالح» أين أنت منذ مدة طويلة يا رجل؟
أعتقد أنك لم تأت لمدة أربعة أيام إن لم أكن مخطئاً.

- أنت لا تخطئ أبداً يا باشمهندس .. عايشين بوجودك
والله.

- لا تقل هذا يا رجل يا طيب ربنا يكرمك ويبارك في أولادك، كيف حال ابنتك، فقد كنت أحاول الوصول إليك في الأيام السابقة للاطمئنان عليها.

- ابنتي وطفلها والجميع يدعون لك بالخير يا باشمهندس،
منذ أن علمت أنك تكفلت بجميع مصاريف ولادتها
المتعسرة وهي تدعوك الله أن يبارك لك في عمرك يا
باشمهندس.

- لم أفعل غير الواجب، حمداً لله على سلامتهما، أوصل لهم تحياتي .

لم يتوقف الرجل عن الدعاء، فشعر «ماضي» بالإحراج ولم يدر ماذا يقول فابتسم له وربت على كتفه واستأذنه أن يذهب، ثم عاد إليه ونظر في عينيه قائلاً :

- سوف ألقى بأمانة على كاهلك... أبلغ الباشمهندس «فتحي» ألا يغضب من «ماضي» مهما صدر منه .

يصمت «صالح» لبرهة وهو يحدق في عين «ماضي» ثم يومئ برأسه متفهماً :

- ربنا لا يقدر يا باشمهندس انتم أخوة، ولكن سأبلغه على كل حال .

يربت «ماضي» على كتف «صالح» من جديد، ثم ينظر نظرة سريعة حوله قبل أن يذهب، ولكن لا أثر لفتحي في المكان، فشعر بالإحباط ولكن يعزيه ما سينقله له «صالح».. أين الهاتف المحمول الآن، كان سيساعده لينهي مهمته هذه. عاد إلى غرفة المكتب وحاول ألا يستسلم للإحباط ونظر إلى الجانب المشرق، فسما موجوده على الأقل وهذا شيء مهم، جلس على مكتبه بعد عودته وقال

لسما وهو يخط في ورقة أمامه دون أن ينظر لها:

- سما .. أريد أن أتحدث معك في موضوع مهم.

ثم صمت وهو مازال يعبث بالورقة التي أمامه ولا ينظر لها، فكسرت «سما» هذا الصمت وقالت :

- أنا أسمعك .. قل لي ما هذا الموضوع المهم فكلي آذان مصغية.

ألقى «ماضي» الورقة التي كانت في يده بإهمال في درج المكتب، ثم استجمع شجاعته وقام من مكانه ساجباً «سما» من يديها وهو يقول :

- هيا بنا من هنا لا يمكن الكلام هاهنا.

تفاجأت «سما» وحاولت الاعتراض فقال لها :

- لا يوجد لدينا الكثير من الوقت وأريد التحدث معك كثيراً.

تعجبت «سما» من الموقف :

- أنا لا أفهم أي شئ.

فرد عليها «ماضي» وهو مازال يجرها من يديها:

— سوف تفهمين كل شئ ولكن لنذهب الآن.

أذعنت له «سما» وذهبا لمكانهما المعتاد ، الكافتيريا المتواضعة نفسها ذات الإطلالة الرائعة، بعد برهة قصيرة من الحديث في أمور عامة قاطعهم النادل قائلاً :

— سعيد برؤيتك يا باشمهندس «ماضي»، ولكن لم كل هذا التأخير فلم نرك منذ مدة طويلة.

— كان لدي الكثير من الأعمال ولم أجد أي وقت للراحة، اعذرنى.

— المهم أنك بخير يا باشمهندس، نورتيينا يا آنسة «سما»

— بنورك يا «محمد»

فقال محمد قبل أن ينصرف:

— هلا أجبلكم طلبكما المعتاد أم شيئاً آخر.

فرد «ماضي» :

— بلى، نريد نفس الطلب بالتأكيد، شكرًا لك يا «محمد».

هز «محمد» رأسه متفهماً. فور ذهاب «محمد» قرر «ماضي» الدخول في صلب الموضوع حتى لا يضيع المزيد من الوقت فقال :

- سما.....أنا أحبك ولن أحب غيرك ما حيت ولن أقابل مثلك مهما حاولت.

احمرت وجنتا «سما»، فقد كانت تنتظر هذه اللحظة منذ مدة ولكنها لم تتوقع هذه المفاجأة، فنظرت إلى الأرض ولم ترد، فأكمل «ماضي» قائلاً:

- بدون الكثير من المقدمات، فأنا أريد أن أكمل حياتي معك، إن لم أتزوجك فلن أتزوج قط، ولكن ظروفى في هذا الوقت غير مناسبة للزواج فهل تقبلين الوقوف بجانبى حتى نستطيع تكوين أسرة معاً.

هزت «سما» رأسها موافقة وهي مازالت تنظر إلى الأرض، فسعد «ماضي» لسماع ذلك وقال وهو يتسم لها في حنان:

- لن أتركك تضيعين من يدي مجدداً، فهل لي أن أقابل والدك لقراءة الفاتحة؟ وتأكدي أننى سأبذل قصارى جهدي كي أعجل بالزواج، فلن أتركك بعيداً عني كثيراً يا سمائي.

تعجبت «سما» من كلمة «مجدداً» هذه، ولكنها قررت تجاهلها واعتقدت أنها خطأ بسيط نتيجة التوتر فلن تسأل

كثيراً على أية حال، فهي لا تريد أن تعكس صفو هذه اللحظة، تريد فقط الاستمتاع بها قدر المستطاع.

حاولت استجماع شتات نفسها فقالت له وهي تنظر له ذات النظرة التي تذيبه:

- ياااااه يا «ماضي» .. لقد توقعت أن ينطق أبو الهول قبل أن تنطق أنت.

ضحك «ماضي» وقال في بداخله:

- ماذا لو علمت أنني لم أكن سأتكلم على الإطلاق؟!

ثم قال لها مازحاً:

- أنا خجول كما تعرفين، وهذا الموقف تطلب مني الكثير من الشجاعة والعمر الطويل كي أستطيع البوح بمشاعري بهذه الجرأة.

كلامه غريب، ثم ما كنه هذه القلادة الغريبة؟! هذا ما قالت «سما» لنفسها، ولكن هو قالها وكفى، كادت أن تفقد الأمل، بل بدأت الظنون تلعب بها وتخيلت أن ما تشعر به كان مجرد أوهام لا أساس لها من الصحة.

لم تجد شيئاً آخر تقوله، فهي مازالت تشعر بالخجل الشديد والتوتر ولا تعلم لماذا تريد أن تنهي اللقاء الآن، ربما تحتاج بعض الوقت كي تستوعب ما حدث، فقالت له على عُجالة:

- يجب أن أذهب الآن .. الوقت قد تأخر كثيراً.

توسل إليها أن تنتظر قليلاً لأنه يفقدها - بالرغم من أنها يتقابلان يومياً- ولكنها لم تنصع لطلبه هذه المرة وقالت له إن والدها سوف يشعر بالقلق من تأخرها، وهي لا تريده أن يربط ذلك بماضي حتى لا يأخذ انطباعاً سيئاً عنه منذ البداية. اقتنع «ماضي» بكلامها، في ذلك الزمان لم يكن مقبولاً خروج فتاة مع شخص بعلم الوالدين كما يحدث الآن، فهو يدرك جيداً أن الوضع حساس وهو لا يريد أن يخسرها لأي سبب كان، لذلك تركها تذهب رغماً عنه.

لم يذهب هو الآخر لأي مكان هذه المرة، ولكنه جلس وحيداً في الكافيتريا لفترة طلب خلالها فنجاناً من القهوة وجلس يفكر لبرهة من الزمن، ثم قرر دفع الحساب و ترك المكان وذهب وكأنه عزم على أمر ما.

«يا كل الحاضر والماضي يا عمر العمر
هل تسمع صوتي القادم من أعماق البحر
إن كنت قويا أخرجني من هذا اليم
فأنا لا أعرف فن العموم»

كانوا في مكتب «أحمد مكاوي» مازالوا يحاولون فهم ما يحدث من خلال وسائل الإرسال التالفة التي ابتلاهم بها «هيثم». كان «ماضي» في هذه الأثناء قد وصل لمنزله الذي يقطن به حالياً، وفي هذه الأثناء بدأ «أحمد» في الصباح مجدداً دون مقدمات كعادته:

- ماذا يفعل هذا المجنون !! أنا لا أصدق هذا .. هل
هل ما أراه صحيحاً؟

قال «أحمد» هذا و هو يطيح بالطاولة التي أمامه بينما كان «مصطفى» يضع يده على جبهته في أسى، أما «هيثم» فكان فاغراً فاه ينظر إلى الشاشة دون أن ينطق بكلمة.

الإرسال مستمر في الانقطاع .. ظنوا في البداية أنها مشكلة تقنية في الأجهزة كالعادة، ولكن تأكدت شكوكهم

عندما رأوا ما يفعله «ماضي»، فور وصوله للمنطقة التي يسكن بها بدأ في إزالة المستحضرات عن وجهه ومعها كان يزيل أجهزة الاتصال، فلم يكن تلف الأجهزة طرفاً هذه المرة في التشويش، بل كان «ماضي» شخصياً هو السبب. لم يصدق أحد من المتواجدين في المكتب أنه يفعل هذا حقاً، تطلب الأمر منهم بعض الوقت لفهم ما يحدث، لم يكن متوقعاً منه التمرد.

بعد انقطاع الاتصال نهائياً، شعر ثلاثتهم أن أحلامهم تنهار أمامهم فلم يتوقع أحد منهم حدوث هذا التطور، بل لم يتوقع أحد من «ماضي» هذا التصرف، لم تدل شخصيته على أي نوع من أنواع التهور أو الأفعال غير المحسوبة، ليس هذا فقط، بل لا يوجد مبرر أصلاً لهذا الفعل الأهوج .. ساد الصمت لدقائق ثم تكلم «مصطفى» قائلاً:
- دعونا ننقذ ما يمكن إنقاذه، يجب ..

قاطعه «هيثم» وهو الذي التزم الصمت طوال فترة الاختبار، ولكنه لم يعد يحتمل أكثر من هذا فقال:

- ننقذ ماذا يا دكتور «مصطفى»؟! هذا شخص مجنون غير قادر على تحمل المسؤولية ولا يؤتمن، أراهنك أننا إذا كنا نتعامل مع طفل في عمر السادسة لما تصرف

هكذا، كان على الأقل تصرف بعقلانية أكثر من ذلك، لا أصدق أن هذا الرجل الذي أُعطي الفرصة لإصلاح حياته والتخلص من الندم الذي يقتله لم يفعل شيئاً سوى أكل وجبة دسمة، بعدها ذهب ليلهو، والشئ الوحيد الصحيح الذي فعله أنه اعترف لفتاة بحبه، أنا أشعر أننا نتعامل مع فتى مراهق لا يفكر، أنا لا أحب الاستسلام ولم أعترف به يوماً، ولكن أعتقد أنه بالنسبة لهذه التجربة علينا أن نكون أكثر صدقاً مع أنفسنا ونعترف أننا فشلنا ونبدأ بالبحث عن شخص جديد لعلنا ننجح هذه المرة، ونتعلم من أخطائنا، ونقوم بالاختيار الصحيح.

تنهد «مصطفى» ثم قال:

- لم أعتد منك الاستسلام يا «هيثم» ولن أتقبله منك الآن، مازالت أمامنا فرصة لفهم ما حدث، يجب علينا الاستماع إلى مبرراته، لم نبذل قصارى جهدنا بعد، دعنا نعطيه فرصته حتى النهاية وبعدها نفكر في الخطوة القادمة.

ثم وجه كلامه لأحمد:

- أرجوك يا «أحمد» اتصل به واطلب منه أن يأتي إلى هنا حالاً.

اتصل به «أحمد» عدة مرات ولكن لا إجابة، ثم حاول مرة أخرى ولم يصل إلى نتيجة، حتى اتصل للمرة الأخيرة التي استجاب فيها «ماضي» ولكن بالرفض، لقد قام بإلغاء المكالمات.

شعر مصطفى بالغضب وسأل «أحمد» وقد عزم أمره:

- أنت تعرف عنوان بيته، أليس كذلك؟

أوماً «أحمد» بالإيجاب فوجه «مصطفى» كلامه لهم:

- حسناً، هيا بنا إلى هناك.

أطاعوه في طلبه دون اقتناع، ولكن لا مانع من فعل كل ما يجب عليهم فعله حتى لا يشعروا بالتقصير بعد ذلك.

- ٤ -

بدأ منزل «ماضي» - الذي يقطن به حالياً - بالظهور أمامه بعد تحطيمه للقلادة التي كان يرتديها، كان من الممكن أن يلقيها بجانب أي سلة مهملات ولكن هذه القلادة أثارت حفيظته بحق فلم يشعر بالراحة إلا بعد أن حطمها، ولكنه لم يستطع إزالة كل المستحضرات التي غطت وجهه، فدخل إلى منزله واتجه إلى دورة المياه لإزالة ما تبقى منها. أمسك بقطنة مبللة بالماء والصابون وبدأ في مسح وجهه وهو ينظر إلى المرأة المعلقة أمامه ويتأمل تفاصيله، ومع كل حركة من يده تظهر الخطوط والتجاعيد التي حفرت في وجهه ورقبته عبر الزمن، هذه الخطوط التي تحمل في طياتها ذكرياته وماضيه وكل ما عاشه من فرح، حزن، يأس أو أمل .. كان يكرهها سابقاً ولا يحب أن يراها ولكنها اليوم أحب ما يكون إلى قلبه، فكما كانت تحمل الحزن والندم سابقاً، هي الآن البرهان والدليل على أنه

صحح أخطاءه وعاش الحياة التي كان يتمناها، فهو اليوم لم يتقبل وجودها فقط، بل كان يفتقدها أيضاً. هذه الخطوط العميقة هي ذاته وما يميزه، هذه التجاعيد هي الدليل على أنه عاش حياة مديدة مليئة بالأحداث، باختصار هي الدليل على أنه حي، كان قد أشرف على الانتهاء من إزالة ما تبقى على وجهه من مستحضرات، حين طرق أحدهم الباب، فأذن له بالدخول.. دخلت «سما» وقالت له:

- لقد تأخرت كثيراً ابنتك «مها» بالخارج و «فتحي» يسأل أين جدو وقد بدأ بالبكاء ولا نستطيع إسكاته، أرجوك تعال وتصرف معه أنت فهو لا يطيع أحداً غيرك.

نظر لها في حنان ووعدتها بأنه سيأتي فوراً، عند خروجه من المرحاض دق جرس باب المنزل فأمر الخادم أن يرى من هنالك.

فتح الخادم الباب - كما أمره «ماضي» - فوجد أمامه «مصطفى» و «أحمد» و «هيثم» والغضب ظاهر على وجوههم، حينما وقعت عين «أحمد» على «ماضي»، الذي كان يقف قرب الباب صاح به:

- هل جنت يا «ماضي»!! ما هذا الذي فعلته يا أحمق؟
هل هذا هو حقاً رد الجميل للأشخاص الذين حاولوا
مساعدتك؟!

رد «ماضي» في انزعاج:

- أرجوك اخفض صوتك من فضلك لا أريد شوشرة،
أرجوكم تفضلوا معي إلى غرفة المكتب وسوف أجيب
عن كل أسئلتكم، ولكن من فضلكم بعد انتهاء هذه
الجلسة اتركوني في حال سبيلي فلا أريد أي شئ يذكرني
بالماضي.

حاول «أحمد» تمالك أعصابه واتجهوا جميعاً إلى الغرفة
المقصودة، سألهم «ماضي» من واجب الضيافة إذا كان أحدهم
يريد شيئاً ليشربه، ولكن بدا عليهم عدم الاستعداد لأي
من هذه المقدمات التي لا داعي لها، عدا «هيثم» الذي
طلب كوباً من الشاي الأخضر. حاول «أحمد» الكلام
فأوقفه «مصطفى» بحركة من يده، فأوماً «أحمد» برأسه
متفهماً.

فقال «مصطفى» لماضي:

- بدون مقدمات أرجوك، من فضلك وضح لنا ماذا فعلت منذ بداية يومك، فما رأيناه حتى الآن كان مخيباً للآمال ونحن بانتظار مبررات هذه الأفعال الغريبة الصادرة منك.

قال لهم «ماضي»:

- سوف أحكي لكم كل شيء ولكن لا تقاطعوني من فضلكم حتى ننتهي من هذه الجلسة سريعاً.

«هل جريت يوماً هذا الإحساس اللذين عندما تشعر
بسعادة عارمة، فتحب ما كنت تكره سابقاً وتتقبل ما
كان يزعجك؟»

أو عندما يحدث بينك وبين أحدهم مشادة أو خلاف
شديد ينتج عنه مقت ونفور من جانبك، ولكن مع مرور
الأيام أو حتى السنين تفتقد هذا الشخص وتشعر بالحنين
إليه، فيبقى السؤال هنا: أين ذهبت الكراهية والنفور؟

دعني أقول لك الإجابة: « ذهبت في طي النسيان».

يعتبر النسيان - من وجهة نظري - وجهاً من وجوه
الحقيقة، فهو يزيل عنك التفاصيل الصغيرة المربكة
فتستطيع وقتها أن ترى حقيقة الأشياء جلية»

النهاية

منذ أن علمت بحقيقة هذه التجربة، بدأت في وضع خطة ليومي وكيف سوف أمضيه، وكما قلت للدكتور «أحمد» سابقاً إنني أشعر بالندم الشديد لأنني لم أستطع حضور جنازة والدي، ولكن بعد تفكير وجدت أن حضور الجنازة لم يكن هو ما يحزنني حقاً إنما عدم وجودي بجانب أبي وأهلي، وكيف أنني لم أمض ولا يوماً معهم أستمتع لهم وأستمتع معهم، لذلك طلبت منكم أن أرجع عدة سنوات قبل الجنازة وقد صادف أن يوم خضوعي للتجربة هو أيضاً يوم لا ينسى في تاريخ عائلتي، لقد كان آخر يوم استطاع فيه أبي الخروج من المنزل، فمنذ أن أصيب بالمرض وهو لا يخرج كثيراً، سافر مرة واحدة لقضاء فريضة الحج وبعدها تدهورت حالته مرة أخرى، ولكن بعدها بفترة تحسنت صحته نوعاً ما وطلبوا مني أن أرافقهم في يوم نقضيه معاً كعائلة من باب الترفيه عن أبي

«الحاج»، كما نطلق عليه من بعد عودته من مكة، ولكن كما هو متوقع، فضلت الذهاب إلى العمل على الذهاب معهم، فقد كنت على مشارف ترقية - كما تعلم - وأردت ترك انطباع حميد لدى مديري، ولكن مع الأسف لم أكن أعلم أن هذه ستكون آخر نزهة تمضيها العائلة معاً، فقد تدهورت حالة والدي بعد ذلك ولم يعد يخرج من المنزل إلا للضرورة القصوى أو من أجل زيارة الطبيب؛ لذلك كما ترى قررت مشاركتهم هذا اليوم، في هذا الوقت كان أبي «الحاج» يتصرف كطفل صغير، كل ما كان يتمناه هو تناول وجبة دسمة والذهاب إلى الملاهي وكأنه يريد أن يثبت لنفسه أنه مازال حياً، كان سعيداً بهذه النزهة وبتليتنا جميع طلباته دون مناقشة أو جدال، فلم تعترض أمي يومها على الوجبة الدسمة كما تفعل معه دائماً، أو تمنعه من الحركة خوفاً على صحته، فقد كان حراً يفعل ما يريد ويطلب ما يريد، وكنت أنا سعيداً لفرحه وسعادته، وقد شعرت بالرضا في هذا اليوم، لقد وجدت ما كنت أتمناه حقاً وما يريح ضميري، وهو أن أكون فرداً من هذه العائلة.. أن أشعر بحبهم ويشعرون بحبي فقط، وهذا ما حدث.

بعد ذلك قررت الذهاب إلى المصنع ومصارحة «سما» بمشاعري .. لم أكن أعلم ما عليّ فعله بالضبط، حاولت ترتيب الكلمات لمرات عديدة، ولكنني كنت أفشل في كل مرة، فلم أجد بُدّاً من التعبير عما بداخلي دون ترتيب، وليحدث ما يحدث، ولكن كنت أريد التحدث لصديقي «فتحي»، كنت أريد أن أخبره كم أحبه هو أيضاً، وكم تعني لي صداقتنا ولكن للأسف لم أجده، لم أضع هذا الموقف في الحسبان، حزنت بشدة لعدم وجوده فهذه فرصة لن تعوض كما تعلم، لذلك بدأت التفكير في حل لهذا الموقف حتى راودتني فكرة عبقرية، كنت أعرف أن مكتبي القديم سوف يصبح مكتب «فتحي» بعد ترقيتي، فقررت ترك رسالة له في درج المكتب أوضحت بها كل شيء وأخبرته أن يسامحني إذا حدث وفعلت أي شيء يضايقه الآن أو في المستقبل وشكرته على وقوفه بجانبني كل هذه السنوات، وأخبرته أنه سبب رئيسي في نجاحي ولولا وجوده لما استطعت تحقيق شيء مما حققت وما سأحقق، واقرحت عليه أن نذهب معاً لتعلم الكمان وأن يحثني على ذلك ولا يقبل رفضي إذا حاولت التملص، لقد قلت كل شيء له وهذا أقل ما يقال، وقد شعرت بالرضا لهذا أيضاً، بعد انتهائي من كتابة هذا الخطاب هدأ بالي قليلاً،

وأزحت جزءاً كبيراً من الهم الذي كان يثقل كاهلي، فاستجمعت كل قوتي وتجرات وطلبت من «سما» أن تأتي معي، لم أشعر بما فعلته ولكنني أعتقد أنني جذبتها بشدة من يديها وخرجت بها من المكتب، فلم أكن أريد تركها، لم أكن أريد أن تضيع مني بعد الآن، وإن كان الأمر يدي لما تركت يدها أبداً، ولكن خشيت أن تظن بي الجنون.. اعترفت لها بما أشعر به وسعدت لتقبلها كلامي ومشاعري، وتفاجأت أنها كانت تنتظره، كنت أعلم أنها تشعر بي، ولكن لم أظن أنني مفضوح هكذا، كدت أطير من الفرحه عندما وافقت على الزواج، والحقيقة.. لم أتوقع أن تشعرني موافقتها بهذا الكم من السعادة، فما أغلى الشاعر وأثمنها وما أحقر المادة وأوهامها!! وكما ترى فوجود «سما» في حياتي واهتمامي بعائلتي لم يضر حياتي المهنية كما كنت أتوقع، فأنا مازالت أمتلك المنزل الفخم نفسه والخدم أنفسهم، ولكن بالإضافة للسعادة وراحة البال التي كانت تنقصني، كم كنت عمياً عن السعادة الحقيقية!! ولذلك تجدني لم أستطع الانتظار، فبعد أن تركتني «سما» وحيداً في الكافتيريا، شعرت أنني يتيماً قد فقد أمه التي كان يتمنى وجودها، مع أنه يعلم استحالة الفكرة، ولكنه وجدها بالفعل ثم رحلت عنه مرة أخرى، فقررت أن أنهى كل

هذا كي أجد «سما» أمامي من جديد، فلم أستطع البعد عنها أكثر من ذلك؛ وهذا سبب إزالتى للمستحضرات وتخلصي من القلادة قبل انتهاء اليوم، فأنا الآن راضٍ ولا أريد أن أضيع ما تبقى من عمري هباءً، أريد أن أعيش كل دقيقة من عمري وأستمتع بها، بل كل لحظة لا دقيقة، حتى إن لم يبق أمامي في هذه الدنيا إلا ساعة واحدة، سأحاول الاستمتاع بها وعيشها كما يجب أن يكون، الآن بعد أن فهمت حقيقة هذه الحياة وعلمت حقارة الأوهام التي كنت أسعى إليها.. الآن أنا أعرف أين يجب أن يُبذل المجهود الحقيقي، سوف أبحث عن عائلة «فتحي» وأولاده، بالتأكيد قد تزوجت بناته الآن وأصبح لديه أحفاد، أعلم أنني لم أستطع منع موته وأنا أتقبل هذا، فقد كان هذا عمره الذي كتبه له الله، ولكن على الأقل لم أكن أنا سببه، لم يمت «فتحي» وبينني وبينه ضغينة، سأبحث عن أختي وعائلتها، سنعيش سوياً في سعادة كعائلة واحدة مترابطة، نحن كبشر شديدو الغرابة حقاً نبحث عن وظيفة من أجل أسرنا، أو على الأقل من أجل حياتنا نحن شخصياً، ثم مع الوقت نبدأ في نسيان أو تناسي الهدف الأساسي من هذه الوظيفة، ونبدأ في ملاحقة الأوهام، فتصبح الأموال أهم من الأسرة، والترقية أو المنصب أهم من الحياة نفسها؛

فنورط بعضنا البعض في المصائب حتى نترقى لمرتبة أعلى، أو حتى نأخذ مكافأة مالية على حساب الآخرين. الإنسان يقتل وينهب ويرتشي من أجل المال، يتنازل عن أخلاقه و أهله وأصدقائه من أجل المال، ولكن عندما يمر بأزمة أو وعكة صحية فإنه لن يجد حوله إلا الأصدقاء الحقيقيين وأسرته، لن تنفعه الأموال أو المناصب، ومع أن أغلبنا يعرف هذه الحقيقة، لكننا لا نتعلم أبداً، مثلما نعلم أن ظلم البشر وقهرهم خطأ وأنه إذا سُلط علينا فيروس صغير لن تنفعنا قوتنا، وسنكون لا حول لنا ولا قوة، ومع ذلك نستغل سلطتنا على البشر أسوأ استغلال، ندرك أننا سنموت يوماً ما لا مفر، ومع ذلك نعيش في الأرض فساداً ولا نبالي، لقد كنت أحد هؤلاء لا أستثنى نفسي، ولكنني تعلمت الدرس وعرفت الحقيقة، والآن أنتم تعرفون كل شئ، أستمحكم عذراً أن تذهبوا فزوجتي وابنتي تنتظران في الخارج، وحفيدي «فتحي» يبكي منذ مدة لغيابي، وكما قلت لكم فأنا أريد أن أستمع بكل لحظة ينعم الله بها علي، لذلك أنا مضطر لإنهاء المقابلة.

أنهى «ماضي» كلامه واتجه صوب باب الغرفة ليغادر، أوقفه «مصطفى» وطلب منه أن ينتظر وقال له :

- انتظريا «ماضي» إلى أين أنت ذاهب ؟ «سما» من التي
تتظرك وابتك من؟! أنا لا أفهم شيئاً.

أجابه «ماضي» متعجباً :

- كما قلت لك، «سما» زوجتي و«مها» ابنتي و«فتحي»
حفيدي .. أين الغموض في كلامي؟!!

فغر «هيثم» فاه، وتصلب «أحمد» في مكانه، وتوتر
«مصطفى» من هذه الكلمات والثقة التي يتحدث بها
«ماضي»، لم يتوقع أحدهم هذا التطور ولم يكن في الحسبان.
تردد «مصطفى» قليلاً وقال لماضي بصوت خفيض
بعض الشيء :

- «ماضي» .. لا يوجد أحد بالخارج.

بدأ «ماضي» يشعر بالملل فلا يوجد لديه وقت لهذا
المزاح، وقد شعر بالندم لموافقته على التحدث إليهم من
الأساس فقال بنفاد صبر:

- أرجوك يا دكتور كفى مزاحاً، فكما قلت لك لا يوجد
لدي وقت لهذا الكلام، لقد بدأت أشعر بالغضب
والملل بالفعل.

رد «مصطفى» قائلاً:

- أنا لا أمزح يا «ماضي»، بل هذه هي الحقيقة، هذا ما أتينا إلى هنا كي نصارك به، فكل ما حدث لك كان من وحي خيالك .. مجرد أوهام.

بدأ الاضطراب يظهر على ملامح «ماضي»، فهو لا يصدق ما يقوله «مصطفى» فقال في غضب:

- أنت تكذب، هل هذه حيلة أخرى من حيلك يا دكتور؟ ليكن بعلمك أنا لن أشارك في أية تجارب أخرى، فقد كانت «سما» معي منذ قليل، وهي من أبلغتني بوجود ابنتي وحفيدي وقد رأيتها بعيني هذه فكيف تقول لي لا يوجد أحد؟!!

أنهى «ماضي» كلامه واتجه ركضاً لغرفة المعيشة، فركض خلفه «مصطفى» ومن معه وأخذ «ماضي» يشير نحو كرسي المعيشة الفارغ ويحدثهم دون النظر إلى الكرسي فيصرخ في وجوههم في هستيريا:

- سما هنا ... انظروا بأنفسكم.

نظرات الصمت تكسوها بعض الشفقة في عيون مصطفى ورفاقه، يلتفت «ماضي» نحو الكرسي ليتأكد من

صحة مزاعمه، فكانت المفاجأة بانتظاره، قد كان الكرسي فارغاً تماماً، وقف للحظات ينظر حوله ولكنه لم يستسلم، ركض في كل أنحاء المنزل يبحث عن «سما»، وهو ينادي عليها، ولكن كان الإحباط يقابله في كل غرفة يدخلها لا «سما».. شعر بالوهن بعد مدة ووقف لالتقاط أنفاسه وانهار في بكاءٍ شديد وهو مازال ينادي على «سما» بصوتٍ خفيض لا يكاد يسمع، وكأن أحباله الصوتية شعرت بالإحباط هي الأخرى، فخرج الصوت خفيضاً متقطعاً، أوقفه «مصطفى» وطلب منه الهدوء ولكن «ماضي» كان بعالم آخر لا يشعر بوجودهم حوله، بل شعر أن الغرفة تضيق فتضيق معها أنفاسه، وكاد يغمى عليه .. حاولوا إسعافه وأجلسوه على كرسي في ركن الغرفة حتى يهدأ قليلاً.

قال له «مصطفى» بعد أن تحسنت حالته نسبياً:

- أنا لم أتوقع أن تصدق الأمر إلى هذا الحد، أنا أشعر بالأسف لقولي هذا، ولكن كل هذا كان إيجاء وقمنا بتهيئتك وزراعة الفكرة في رأسك، وفي كل جلسه كنت تحضرها مع «أحمد» كنا نقنعك بالفكرة أكثر حتى أصبحت جاهزاً، ولكن لم نتوقع أن تصدق الهلاوس

والأوهام إلى هذا الحد.

كان «ماضي» يستمع له ولم يرد ولا حتى كلف نفسه بالنظر إليه، ومع كل كلمة تخرج من فم «مصطفى» كانت تتجلى نظرة الانكسار والحسرة في عين «ماضي»، فسارع «أحمد» بالقول ولم يعبأ بمعاناة «ماضي» أو لم يبتبه لها من الأصل:

- لقد وقع عليك الاختيار منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها إلى المكتب، وقد راهنا على أنك حصاننا الرابع حينئذ، أما سبب تأخرنا في الرد عليك، فكان لجمع أكبر قدر من المعلومات عنك وعن حياتك، وقد تطلب هذا وقتاً أكثر من المتوقع، ولكن مع كل معلومة جديدة كنا نعرفها عنك كان أملنا يزداد في نجاح التجربة على يدك أكثر.

بعد أن أنهى «أحمد» كلامه تدخل «هيثم» قائلاً:

- الإيحاء أو الإيهام يتطلب استعداداً كاملاً من المريض وهذا الاستعداد أهم من مهارة الطبيب نفسه؛ لذلك أمهر الأطباء لا يمكنهم النجاح مع مريض غير مستعد، وأنت كنت مستعداً أكثر مما ينبغي وظهر ذلك عندما قمنا بإطلاعك على تفاصيل الأبحاث

التي أجريناها، بالمناسبة أنا وأحمد مساعدان للدكتور «مصطفى» وهو الذي يشرف على أبحاث الدكتوراة الخاصة بنا، فلا يوجد بيننا عالم فيزياء أو عالم كيمياء، وحتى مستحضرات التجميل فقد تعلمها «أحمد» خصيصاً من أجل هذه التجربة، قبل ذلك الوقت لم يكن يفقه شيئاً عنها، وطبعاً كل الأبحاث التي تحدثنا عنها لا وجود لها وقد قمنا باختراع وجودها كي تبدو فكرتنا منطقية بالنسبة لك ويزيد تصديقك لنا، فكنا على علم أنك مهندس ناجح وبالتأكيد تميل إلى التفكير التحليلي والمنطقي وقد خاطبنا هذا فيك، ولكن مع هذا القدر من الذكاء والفتنة، أنت لم تنتبه إلى أن هذه الأبحاث المهمة التي ستغير العالم لم تستغرق أكثر من ثلاث سنوات من البحث والعمل، وهذا شيء غير واقعي على الإطلاق، ولكنك صدقته لأنك تريد أن تصدقه، وكان تجاهلك لهذه النقطة عن غير قصد، ما نراهن نحن عليه، إما أن نكمل التجربة في حالة عدم ملاحظتك لها أو إيقاف كل شيء في حالة تفكيرك بها وعدم تصديقك لها، فالعين ترى ما تريد أن تراه، والأذن أيضاً تسمع ما تريد أن تسمعه، والعقل يتجاهل ما يريد أن يتجاهله، وعقلك الباطن الذي كان يدرك

مدى أهمية هذه التجربة بالنسبة لك قرر أن يتغاضى عن هذه المعلومة غير المنطقية حتى تكمل ما بدأت. نظر «ماضى» لهيثم ولم يعلق كأنه لم يسمعه ثم قال لهم في لوم:

- لماذا أنا، ألم يكفكم ما أشعر به! ألم يكفكم الندم الذي يثقل كاهلي؟! أنتم لستم بشرا فلا يوجد في قلوبكم رحمة فأنا رجل كبير لا أحتمل ولكنكم لم تحترموا هذا. رد عليه «أحمد» :

- من أجل الأهداف السامية وخدمة البشرية يجب أن نقوم ببعض التضحيات يا سيد «ماضى» وعليك أن تتقبل هذا، فأنت ساهمت في معرفة مكنونات نفس الإنسان أكثر وهذا سيفيد الباحثين في العديد من المجالات، وأما عن سبب اختيارنا لك أنت بالذات فهذا سؤال بسيط إجابته أبسط، فقد لفت انتباهي منذ اللحظة الأولى ملابسك الرثة التي تفتقر إلى الذوق فتوقعت عدم وجود امرأة في حياتك وبعد جمع المعلومات عنك ومعرفة كم تملك من أموال استنبطت أنك شخص لا يعرف كيف يستمتع بالحياة، ولا كيفية الاستمتاع بما يملك وهذا لا يحدث إلا عندما يزهد الشخص في الحياة، أو

تفقد معناها بالنسبة له والاستنتاج الأول كان بعيداً من وجهة نظري؛ لأنه لم يبد عليك أي مظهر من مظاهر التدين فراهنت على الاحتمال الثاني وكسبت الرهان.

قال له «ماضي» بنبرة متوسلة:

- ولكنك وعدتني بفرصة ثانية يا «أحمد»، أنت قلت لي هذا.. ألا تتذكر؟ لقد قلت لي إنه بإمكانني إصلاح كل شئ أليس كذلك؟! أين هي الفرصة الثانية يا أحمد أين هي؟ قل لي أرجوك.

أجاب «أحمد» بأسى هذه المرة:

- للأسف يا ماضي لا يوجد فرص ثانية، لقد منحك الله فرصتك كاملة ولكنك أسأت الاختيار مع أنك كنت تعلم في كل لحظة أنها فرصتك الوحيدة، ولكنك لم تلق بالاً لهذا، ولا أنا ولا أي مخلوق بمقدوره إعطاؤك هذه الفرصة التي تبحث عنها، كان يجب عليك وضع هذا اليوم في حسابك، كان يجب عليك وضع الشعور بالندم نصب عينيك قبل أي فعل تقوم به حتى لا تصل لهذا اليوم الذي تتمنى فيه فرصة ثانية، أقولها لك مرة أخرى مع كل أسف لا يوجد فرصة ثانية يا سيد «ماضي»

صمت «ماضي» للحظات وبعدها قام من مكانه
كالملسوع وبدأ الركض في أنحاء المنزل مجدداً وهو ينادي
على «سما»، ولكن كالعادة «سما» لا تجيب.

«لو أني أعرف أن البحر عميق جداً ما أبجرت
لو أني أعرف خاتمتي ما كنت بدأت»

تمت